مجموعة قصصية

أحمد الخميسي

حفيف صندل

كيان
Kayan
KAYAN PUBLISHING

حفيف صندل

حفيف صندل

مجموعة قصصية

أحمد الخميسي

إهداء ..

محبة بعد أخرى، إنما كنتُ أدرب قلبي ليُغني لك.

أحمد الخميسي

حفيف صندل

توقف بي الميكروباص عند الكيلو 21 من الإسكندرية حيث تصطف السيارات المتجهة إلى القاهرة. هبطت تتأرجح على ظهري حقيبةٌ صغيرة خفيفة، وامتدَّ أمامي ميدان تنفتح عليه، مثل الأسهم، عدة شوارع غاصّة بالحركة. لبثت أتلفَّت بحثًا عن موقف سيارات القاهرة، فوقعَت عيني على رجل نحيف في حوالي الأربعين في سروال ضيق مُهترئ، وقميص عليه حروف إنجليزية باهتة، قدماه في صندل بلاستيك مفتوح. نظرت إلى أصابع قدمَيه العارية فسَرَتْ منها في بدني قشعريرة الجو البارد. رأيته وقد مال بصدره وذراعَيه على واجهة سيارة ملاكي، يمسح زجاجها بدوائر من خرقةٍ مُتسخة. قلت له: «أين تقف سيارات القاهرة»؟ ارتدَّ بجذعه للوراء وأمعن النظر في طويلًا وأنا أُعاين شعر رأسه الأبيض الهائش من دون أن أعرف إن كان ذلك لون الشيب أم أنه بياض جير عُمَّال الدهان. رمش بعينَيه بفتور، شخص لم يغسل وجهه طويلًا، ثم رفع ذراعه ببطء يشير إلى كوبري: «هناك. تحت ذلك الكوبري»، خرجت كلماته مثل بقبقة غريق لا يقوى على إطلاق صوته، حروفًا داخل فقاعات هواء. التفتُّ إلى حيث أشار وقلتُ له: «نعم. رأيت الكوبري». توقَّعتُ أنه سيُولّيني ظهره ويرجع إلى زجاج السيارة يُلمعه بالخرقة السوداء، لكنه ظلَّ يُحدّق بي في ثبات متَخشبًا في مواجهتي كأن ثمة حديثًا مُعلقًا لم ينته. سددت إليه نظرةً أحاول أن أخمن ما الذي يُحجم عن قوله، فلم أر سوى نظرة جوع غائر في ذكرياته وارتجاف شفتِه فاضطرب شيءٌ في دمي، وأخرجتُ ورقةً بخمسة جنيهات ناولته إيَّاها وأوليته ظهري. مشيت عدة خطوات وما لبث أن تناهى إليَّ حفيف صندله يزحف خلفي وصوته مُهشمًا: «ليس الصف الأول من السيارات.. الصف التالي.. على اليمين». التفت إليه. كان رأسه يرجف مثل طائر لا يقوى على الرفرفة. قال: «الصف التالي.. على اليمين». أردف: «حضرتك عرفت»؟ ناولتُه ورقةً أخرى بعشرة جنيهات. استبقاها في راحة يده يمرُّ عليها بأطراف أصابعه كأنه يستمدُّ منها الدفء. قطعت عدة خطوات للأمام فتبعني يَقول: «هناك سيارات تذهب بك إلى المرج وأخرى إلى ميدان رمسيس، لكن رمسيس أحسن لك. رمسيس أفضل لحضرتك»، وحدَّق بي بعينين تخترقان الفضاء وتسقطان على الأرض بلا أمل. تمتم: «حضرتك عرفت»؟ وبقي جامدًا تتدلَّى خرقة القماش من يد، ويده الأخرى تمرُّ على الحروف الإنجليزية الباهتة فوق قميصه. سحبتُ من جيبي ورقةً مالية أخرى ناولتها إيَّاه، قبض عليها بقوة ورفع بصره نحوي: «خلاص. حضرتك عرفت. خلاص. أنت عرفت». أولاني ظهره بحزم هذه المرة. مشى وهو يتلفَّت حوله في سَيره. تابعتُه ببصري وهو يبتعد شيئًا فشيئًا. هبَّت على الميدان زوبعة باردة من البحر فرقَّته خيوطًا تتأرجح في الريح، فلم يبقَ سوى صندل، وحفيف قلب يحتكُّ بالأرض.

***

في إحدى الحجرات الضيقة بمقر الصحيفة، كان خالد لمعي المُشرف على صفحة الفن جالسًا إلى مكتبه، ينصت باهتمام للهاتف الملصق بأذنه، وأصابعه تعبث بحركةٍ عصبية بقدَّاحة على المكتب. أمامه، على الكرسي الوحيد بالحجرة، جلس رسام الكاريكاتير أيمن، وعلى رُكبتَيه حافظة أوراق يمطُّ طرفها من حينٍ لآخر. أنهى خالد المكالمة ونهض على الفور واقفًا بوجهٍ متوتر. مسح سطح المكتب بنظراتٍ سريعة وقال: لا بد أن نُغادر هذه القصة فورًا.

تقلقل أيمن في مكانه يسأل مدهوشا: ماذا حدث؟ قال خالد وهو يلم أوراقه ناحيتَه بحافة كفّه: علمتُ الآن أنهم هاجموا بيت جمال مؤلف هذه القصة التي نحن جزءٌ منها. وراحوا يسألونه، وهو بالبيجاما في حجرة النوم، عما يقصده بالقصة، ثم جرُّوه على سلالم العمارة وهم يتوعدونه بإعدام القصة بكلِّ ما فيها من شخصيات وخواطر. هكذا سنكون أنا وأنت عرضةً للموت إذا بقينا داخل القصة، أو أننا قد نقضي زمناً في مخازن الرقابة. علينا أن نجمع أوصافنا حالًا ونهرب على الفور من هذه القصة فلا يَجدوا ما يدلُّ علينا عند وصولهم.

قال أيمن بين التقرير والسؤال: لكن الحوار الذي أداره المؤلف على لساني وعلى لسانك، لم تكُن به كلمة تمسُّ الخطوط الحمراء المعروفة! أجابه خالد: نعم، لم يكن بالحوار عبارات صريحة، لكنه إجمالًا يوحي بأن كل شيء أمسى محظورًا وممنوعًا حتى الهمس. أنت كما صورك الكاتب في القصة رسام كاريكاتير، وأنا مسئول في جريدة عن صفحة فنية، أنت قدمت لي فكرة كاريكاتير عن سجين يطلب كتابًا فيقول له الشاويش: الكتاب غير متوفر الآن في مكتبة السجن لكن لدينا مؤلَّف الكتاب نفسه. ألا ينطوي ذلك برأيك على شيء؟ النظام يُميز مِن على بُعد المواطن المُخرّب من الصالح. قال أيمن: وكيف يميزون بينهما؟ قال خالد متهكمًا: هذهً بسيطة. إذا جلَس المواطن ووضع ساقَه اليُسرى على اليُمنى فهو يساري، ووجب اعتقاله، وإذا وضع اليُمنى على الأخرى فهو يميني ووجب اعتقاله، وإذا لم يضع ساقًا على ساق فإنه ماكر لئيم يُخفي معتقداته وبالطبع يجب اعتقاله. أما المواطن الصالح فإنه يمشي طول الوقت والعمر يبني مجتمعًا جديدًا سعيدًا. قال أيمن: لكن، أيُعقَل أنهم أصبحوا يطاردون حتى الشخصيات الأدبية مثلي ومثلك؟ قال خالد: الفكر والأدب خطر؛ لأن الكلمة قد تُمسي حركة، فلا تستهن بخاطرٍ أدبي أو قصيدة أو رواية. تنهد أيمن بحزن: من سوء حظنا أن يكون الكاتب الذي خُلِقَ مهمومًا بقضية الحرية. لو أننا كنَّا من تأليف كاتب تمثيليات مُسلية لَكُنَّا قد ضمنَّا حياةً كريمة بدلًا من المطاردة. قال خالد: لا أحد يختار مؤلفه، وأيًّا كانً ما سيجري علينا فإن حياتنا كانت ومضة ذهنية شريفة، لم يُرغمنا المؤلف خلالها على كذب أو نفاق. أردف خالد قائلًا: أظن أن علينا أن نُسارع بالهروب من بين سطور القصة قبل أن يدهمونا.

اندفع أيمن ممسكًا بحافظة الأوراق يخرج من النص الأدبي ومن خلفه خالد. هبط الاثنان من مقدمة القصة إلى الفقرة الأولى، ثم راحا ينزلقان على السطور وهما يتجنَّبان الارتطام بعلامات الاستفهام ويتفاديان صلصال المُدبَّبة، إلى أن بلغا الفقرة الأخيرة من القصة فانحدرا على حروف الخاتمة إلى رصيف شارعٍ يضجُّ بالحركة.

قال خالد وهو يعبّ هواء الحياة الحقيقية: هَل فاتك آن تنظف القصة من آي آثرٍ يدل على وجودنا فيها؟ قال أيمن: اطمئن. لقد حذفت اسمينا وجمعتُ كل أوصافنا الجسدية، لكنني لم ألحق بمراجعة كل التفاصيل. سرح خالد ببصره وصاح: يا إلهي! قداحتي على المكتب! عد إلى القصة بسرعة وهات القداحة لأن بصماتي عليها، ستجدها في السطر الثاني حين ذكر المؤلف أن أصابعي كانت تعبث بها. استدار أيمن وتسلَّق آخِر حرف في القصة صاعداً إلى أعلى النص، وعندما بلغ الفقرة الأولى منه التقط القداحة بسرعة منَ السطر الأول، وحين أوشك على الهبوط لمح وصف المؤلف له بأنه «رسام كاريكاتير. يبدو الصّدق على ملامحه»، فمحا تلك الجملة، وواصل النزول، وعندما استقرَّت قدمه على رصيفَ الشارع نفض سرواله وقال لخالد: إليك القداحة. لم نعُد حاضرين في القصة ولا بكلمة.

تبادل الاثنان نظرة تشجيع وشدَّ كلٌّ منهما على يد الآخر بقوة. سدَّدا نظرة إلى الطريق الطويل المفتوح، وبدآ في السير بخطوات حثيثة وهما يتلفتان خلفهما. اجتازا الميدان الفسيح وركضا مثل الريح يلمسان الأرضَ ويُحلقان بضغطة خفيفة فيرتفعان إلى قباب المدينة وقلاعها، يخفقان في السماء، وكلما شعرا بالتعب هبطا إلى المقاهي، يجلسان قليلا بين الناس ثم يصعدان مع الخواطر الفنية، إلى الشخصيات الأدبية، والأفكار التي تحتمي بالسماء.

***

ضــوء مـن الـشـرفـة

خفق قلبي بالحب لأول مرةٍ وأنا صبيٌّ في الثالثة عشرة. خفق بحب شريفة، التي كان للفيلا الخاصة بوالدها شرفة مفتوحة على الشارع الطويل المعتم، وكانت تجلس وحدها كلَّ مساءٍ في الشرفة تحت ضوء مصباح صغير معلق، ينشر هالةً من النور الخفيف حول رأسها ويتفرق في هواء الشارع الصامت. لم أُحدثها قط، لم أقترب منها، والأرجح أنها لم تلحظ وجودي، لأني كنتُ أكتفي بالمرور كل مساء على الرصيف المقابل لشرفتها، أخطف النظر إلى وجهها وكتفَيها، وهي جالسة أشبه بنجمة مشعة في اكتمال شبابها وجمالها. كنتُ صبيًّا صغيرًا مثل عشرات الصبية من شارعنا المُعتم المهمل الصامت، فلم تعرف بأنني أتطلع إليها، كانت أول من خفق قلبي بها، أو أن ذلك كان أول أوهام المحبة، ومن ضوء تلك الشرفة ترامت في حياتي أوهام المحبَّات، وهمًا بعد آخر. وظللتُ طوال عمري أمشي على ذلك النور الخافت، ما بين خيالي والحقيقة، وأنا أسأل نفسي: ما الذي أود أن أُحققه في حياتي التي ظهرت عرضًا؟ وهل يصلح العمد والقصد في رحلةٍ تمَّت بالمصادفة؟

أحببت بعد ذلك بسنوات وأنا في السابعة عشرة، وكتبتُ إليها رسائل مطولة، وغمرتني بحنانها، لكنَّ اعتقالي لسنواتٍ أحبط كل شيء، وحين خرجتُ من المعتقل كانت قد تزوجت. ظللتُ طويلًا أرى عينيها الواسعتين تشعَّان بضوء الشرفة القديمة، تتألقان بالوهم والأمل العميق.

سافرت خارج مصر وتزوجت، ولم يكن في قلب زوجتي ولا عينيها شيء لا من الحلم ولا من الوهم. عشت بجوارها لكن ليس معها، مثلما تسير بجوار شريط قطار، ثم تزوجت ثانية، وثالثة، وكنت بدون وعي أفتش عن ذلك النور الخافت الذي أضاء قلبي، إلى أن التقيت بها، فوقعت في حبها والأدق أن أقول فارتفعت بحُبها، ولم أجد سببًا واضحًا لذلك العشق العارم، وقلت لنفسي ليس حبًّا ذلك الذي نعرف أَسبابه، لأن الحب يبقى بئرًا عميقة من الأسرار والذكريات والصور التي تندلع مجتمعةً فجأة مثل كرة من نار، لكننا افترقنا رغم المحبة، فانجرفتُ إلى ذكريات المحبَّات الخائبة التي مرَّت وأخذتُ أتساءل: لماذا لم يبقَ على أطراف روحي سوى مرارة من سعادة؟ وحزن من فرح؟ ويأس من أمل؟ وكيف تحطمت أوهامي الجديدة على صخرة أوهامي القديمة؟ فإذا بلا شيءٍ بين يدي؟ لا شيء سوى بقايا حياتي التي انقضت؛ ذرَّة مُشعة بالخيال والحب والأمل. ها أنا أُلقي على العالم نظرة أخيرة. أوصد أبوابه. أحكم الرتاج على نافذته المطلة على الزمن. أدير ظهري للدنيا، أغذُّ الخُطى وقدماي تتعثران بالأغنيات القديمة، واستدارة عنقك، وبسمة عينيك، ونور الشرفة الخافت البعيد. أغذ الخطى وليس في قلبي سواك مشعة في دمي، مشعة في خيالي الذي فاق كل شيء، أمضي يغمرني شعور بالثقة بأنني حين ألقى وجه ربي سيرأف بي ويقول لي: مغفورة لك كل ذنوبك، كان قلبك يخترع العالم، وقد أتعبك ذلك، وأتعبتك الأحلام التي عاقبتك بالرقة وعذبتك بالحنان وبددتك بالشوق. استرح هنا واهدأ وكفَّ عن اختراع العالم. ولسوف أجلس مطيعًا ممتنًّا أستريح في ظل الرحمة، أضمُّ رُكبتَي إلى صدري وأبذل قصارى جهدي لكي أنسى عينيك، ونور الشرفة الخافت بعيدًا، وأُنحِّي بعيدًا الوهمَ العذب والأمل العميق.

***

رأسان

هبط على درج باب الفندق المُطل على النيل، برأس مرفوع ناظرًا إلى الأمام، من يده اليُمنى تدلَّت حقيبة سوداء يلمع جلدها، وفي يده الأخرى علبة سجائر وقداحة صفراء. سارع العامل الواقف بزيِّ الفندق المُخطط بألوان زرقاء وصفراء إلى باب السيارة الواقفة أمام الفندق، فتحه وهو يَحني جذعه لأسفل حتى كاد رأسه أن يُلامس الأرض، ولبث هكذا خاشعًا حابسًا أنفاسه وعيناه في الأرض.

اثنان لا يعرف أحدهما الآخر، لم ير أحدهما الآخر من قبل، جمعتهما لحظةٌ عابرة وهبَّة هواء من النيل. يُخامر صاحب الرأس المرفوع شعور خفيف عذب كالنسمة أنه إنسان ذو شأن، لحظة عبوره السريعة من باب الفندق كفيلة بأن تجعل إنسانًا يُطأطئ رأسه ويظلُّ مدةً في هذه الوضعية احترامًا وخضوعًا، بينما يفكر العامل الذي يُحدق بإطار السيارة المُترب في ما إن كانت أمارات التواضُع بادية عليه بما يكفي أم لا. يفكر أن هذه حرفته بعد أن هاجر من قنا إلى القاهرة، إنه لا يصنع شيئًا، لا يبني، وقد كفَّ عن الزراعة، ومنذ عامَين يفتح أبواب السيارات فحسب، فيَهَب أصحابها من نزلاء الفندق ذلك الشعور اللطيف بأنهم أصحاب رفعة ومقام، لا يليق أن يفتحوا الأبواب بأنفسهم، وأن هناك من يكرس حياته بكل ذكرياتها وأمانيها لذلك العمل البسيط. إنه يُدرك، وعيناه في الإسفلت، أنه يتقاضى راتبه فقط لكي يُنتج للآخر ذلك الشعور الدقيق الناعم بالأهمية لدي النزلاء وضيوفهم.

يمكنك أن تقرأ آلاف السنين في اللحظة التي علا فيها رأسٌ وانكفأ رأسٌ، وفي المسافة القصيرة بينهما سترى كلَّ شيء.

***

من حيث لا يتوقع حدثت المعجزة التي بدَّلت كل شيء، كان ذلك عقب زيارة ابن عمّه المخرج التلفزيوني عبد السميع أول أمس، تغدَّى معهم ملوخية وأرانب، وبينما هو يأكلَ التفت إليه واللقمة في منتصف الطريق بين يده وفمه وقال له: «تيجي تمثل معي يا بهاء»؟ هز بهاء رأسه بالموافقة من دون تفكير، أما أمَّهَ فبانت عليها علامات الفرح المُفاجئ وقالت بلهفة وفرح: «آه والنبي يا عبده». أردف عبد السميع وهو يدفع اللقمة إلى فمه: «بهاء صغير وشكله لطيف». تطلعت أمُّه إليه بفخر، بينما غمره الاستياء من كلمة «صغير». صحيح أنه في الثالثة عشرة لكنه ليس هذا «الصغير»، وكيف يكون وقد خفق قلبه بالحب منذ أسبوع حين لمح مُنى وهي تهبط على درَج السُّلَّم من الطابق الثاني حيث تسكن. حينذاك تطلَّع إليها وأحسَّ في لحظةٍ أن حريقًا شبَّ فيه وأحال كيانه مادةً أخرى فلم يعُد يتعرَّف إلى نفسه. لقد اضطرب وقلق منذ أن رآها تمشي بخفةٍ رشيقة وشعرها الذهبي يتماوج فوق كتفَيها، وبعد ذلك يقولون: «صغير ولطيف»؟! هل يتقلب في الليل صغيرٌ وهو يرى مُنى تتأرجح على أطراف رموشه إلى أن يقول لها: «أُحبك يا مُنى»؟ وأخذ يُراقبها من فُرجة ستارة الردهة حين تزورهم، وهي جالسة مع أخواته. ينظر إليها ويتساءل: كيف تشعُّ منها كل هذه السعادة؟ ارتجَّ قلبه لكنه لم يجرؤ على مصارحتها بما يحسُّه، وظلَّ كلَّما صادفها يتطلَّع إليها صامتًا، بلهفة، ولأن العشاق كما سمع يكتبون الشعر؛ فقد كتب قصيدةً صغيرة من بيتَين اثنين: «مُنى شعرها ذهب.. وقلبي معها ذهب»، وتعهد أمام نفسِه باستكمالها فيما بعدُ لتُصبح أكبر. لكن ها هي المُعجزة تقع ويدعوه ابن عمه إلى التمثيل، وتجرى الأحداث في اتجاهٍ آخر.

فجر اليوم التالي، كان ينتظر أن يذهب إلى التلفزيون. استيقظت أمُّه مبكرًا، تغسل وجهه وتكوي البنطلون والقميص وتُراجع تسريحةَ شعره أمام المرآة. أخيرًا دقَّ جرس الباب وظهر شخص يسأل: «الأستاذ بهاء موجود»؟ فتقدَّم من خلف فستان أمّه، وتطلَّع إليه المندوب نادمًا أنه قال «الأستاذ» ثم صحِبَه إلى مَبنى التلفزيون. في الطريق أوضَح له: «المفروض أننا نُصور ناسًا يروحون ويجيئون في طرقةٍ داخل مستشفى، وأنت ستمشي في الطرقة وبجوارك رجل كبير يسألك: حجرة رقم 8؟ تُجيبه: لاء . حجرة 14. فاهم»؟ هزَّ بهاء رأسه أنه فهم.

صعدا إلى المبنى. وفي الاستديو أجلسوه على كرسيّ خلف ديكورات المشهد، وجاءه أحدهم بكوب عصير برتقال. بعد قليل أشار إليه مساعد المُخرج أن يستعدَّ لأداء دوره، وما لبث أحدُهم أنَ دفَعَه من كتفه إلى الطرقَة تحت ضوء كشافات النور ومعه الرجل الكبير. بعد عدة خطوات مال الرجل يسأله: «حجرة رقم 8»؟ هنا طقَّت في دماغ بهاء أن عبد السميع المُخرج ابن عمّه، وكثيرًا ما يتغدَّى عندهم، فكيف يقتصر دوره في التمثيلية على كلمتين؟! لذلك كبَّر بهاء الدور مؤكدًا ما يقوله بحركات يدَيه وحواجبه وتلعيب رقبتِه: «لاء يا عم. ليست حجرة 8، هو كان هناك لمَّا كانت حالته صعبة، لكن عندما تحسَّن نقلوه بعد ذلك إلى ...» وبينما بهاء يسترسِل هبطت عليه من كابينة أعلى الاستديو صيحة المخرج: «ستوب. وقف». وصاح مساعد المخرج في بهاء: «هما كلمتان وبس. أنت مرور فقط. منظر يعني. نعيد المشهد». اشتغلت الكاميرات مُجددًا ودخل بهاء إلى الممرِّ مكسور الخاطر ولفظ

الكلمتَين مُحبطًا: «حجرة 14». بعدها قاموا بتوصيله إلى البيت في تاكسي. طرق الباب وما إن فتحت أمُّه حتى تلقَّفتْهُ بين أحضانها بفرح تُقبّلُه مُهنئة تستفسرُ منه عما جرى، لكنه كان مُغتمًّا حتى أنه لم يسمعها تقول له: «المسلسل سَيُذاع الساعة الخامسة اليوم». تظاهر بهاء بالنوم لكي لا يشهد الحلقة، ولم يخطر له أن لحظة ظهوره السريعة على الشاشة ستكون المُعجزة التي تُغيّر كل شيء، لكنه عرف ذلك في اليوم التالي حين صادف مُنى على الدَّرَج وفوجئ بها تستوقِفُه، وتُمسك به من كتفَيه وقد فتحت عينيها بدهشة وفرح وهي تصيح: «معقول يا بهاء؟ معقول؟! أنا شفتك في التلفزيون! كنت جميل جدًّا في الممر». لم يُصدق أن التي تقف أمامه وتُحدثه منى. تجمَّد أمامها مُتمنّيًا أن يُمسك بيدها، وقد خطر له أن هذه هي اللحظة المواتية فشدَّ رقبتَهُ لأعلى وتمتم بتواضُع بصوت وقور: «هو دور بسيط.. للبداية». هزَّتْهُ من مرفقَيه تصيح: «لا يا بهاء.. كنت حلو قوي، وماشي بثقة وعظمة. ستكون نجمًا كبيرًا .. يا سلام .. يا سلام»، ثم هرولت تُواصِل الهبوط إلى مخرج العمارة. الآن أحبَّ بهاء لحظة العبور السريعة في المشهد، فقد أصبحت المُعجزة التي قرَّبته من منى. في الليل ظلَّ يُردّد على مسامعها قصيدته الصغيرة «مُنى شعرها ذهب .. وقلبي معها ذهب».

بانقضاء شهر كبسَ عليه الاستعداد للامتحانات فلم يرَ مُنى طويلًا إلى أن فوجئ أول أمس بزغاريد في فضاء السلالم. صعد إلى الطابق الثاني ورأى على باب شقة مُنى مصابيح ملونة مُعلقة، وأمام الباب زحمة من البنات والرجال. استفسر فقيل له إنها خطوبة مُنى! ولم ينقضِ نصف عام إلا وكانت مُنى قد تركت شقة أهلها ولم يعُدْ بهاء يراها. اعتاد غيابها في العامَ الأول، ولم يرها سوى مرة بالمصادفة وهي تصعد لزيارة أُمّها، لكنه لم يلمح في عينَيها السعادة البكر التي كانت تضحك بها وهي تُداري فمها بيدها، وتباعدت في الليل مرَّات ظهورها، وإن كانت من وقت لآخر تمشي في ذاكرته من دون صوت، فيعيش حلمًا مُبهمًا. ولم يبقَ من القصة سوى بيتَين من قصيدةٍ صغيرة.

***

تعب في الركبة

كانت لدي منضدة صغيرة تفسَّخت قوائمها وأردت إصلاحها، وذات يوم وأنا في طريقي إلى البيت شاهدتُ إعلانًا بالبوية على حائط بيت: «أبو السيد. نجار. منزل رقم كذا .. تليفون رقم ..» قلت لنفسي: «ممتاز». اتجهت مباشرة إلي العنوان المذكور، وهناك رأيت امرأتَين مُمتلئتَين جالستَين تحت شرفة الطابق الأول تثرثران. واحدة تبيع فطيرًا مشلتت والثانية لا تبيع فطيرًا، مكتفية بالجلوس ووضع يدها على خدها. سألت عن أبو السيد النجار، فردت البائعة: وحضرتك مش عاوز فطير؟ قلتَ: لاء. شكرًا. فانصرفتَا إلي الثرثرة. قلت: النجار موجود؟ قالت: لاء .. اتّصل به. قلت: والتليفون عنده شغال؟ قالت: التلفون أيوه .. النجار هو اللّي مش شغال. بعِيدَ عنك جاله تعب في الركبة. أضافت الأخرى: لكن محمود النجار موجود. استفسرت: طيب فين محمود ؟ قالت: حتلاقيه قاعد بيلعب طاولة مع صُبحي الكهربائي في المحل آخِر الشارع.

اتجهتُ لمحل صبحي الكهربائي. محمود عندك؟ قال: أي محمود؟ أصل لا مؤاخذة عندنا ثلاثة محمود؟ قلت: النجار. صاح: آه .. فهمت! شوفه جنب محل الكُفتة عند ربيع الحلاق، كان بيعمل له رف خشب. ذهبت لعم ربيع، وما إن نطقتُ باسم محمود حتى ضحك الحلاق العجوز بسرور كأنه تذكر شيئًا مُفرحًا وسِرِيًّا في الوقت نفسه، وقال ببهجة: محمود ؟!! الله يخرب عقلك يا حودة .. واد مسخرة. شوفه على قهوة السكرية جنبنا. وقهقه يُحدث نفسه وهو يُتكتِك بالمقص فوق رأس الزبون: يخرب عقلك يا حودة! سألت الجرسون في المقهى: محمود النجار هنا ؟ جاي حالًا. تشرب إيه حضرتك؟. قهوة مضبوط . جلست. بعد نصف ساعة ظهر رجل من سِنّي تقريبًا يسأل عن النجار. قلت له: تفضل. اجلس، وأوضحت له أن أبو السيد لا يعمل حالِيًّا لأنه جاله تعب في الركبة، لكن محمود شغال. سألني: ومحمود ألقاه فين؟ قلت له: أنا قاعد أنتظره. كلمة مني وكلمة منه سألني: وحضرتك أصلًا من فين؟ قلت: من طنطا! . صاح: الله من فين في طنطا؟ من شارع كذا. معقول! طيب الاسم إيه بالكامل؟ عرَّفته بنفسي، فصاح: يا نهار أبيض؟! من بيت الحاج عبد الجواد ؟! ونهض وأخذني بالأحضان قائلًا: ألا تعرفني؟ أنا ابن بنت عمة أبوك الكبيرة .. نفيسة .. الله يرحمها! وأقسم الرجل بكلّ المقدسات أن يَصحبني معه إلى طنطا لنتغدّى عند أُخته سهام، وبذلك نصل ما انقطع من صِلة الرحم. حاولتُ أن أرفض فعاتبني: إزاي؟ دي سهام تزعل قوي. رَكِبنا سيارةً من رمسيس وبعد ساعتَين كنَّا نأكل ملوخية وأرانب عند سهام وزوجها يُحرك طاقيته فوق رأسه من وقت لآخر مُغمغمًا «أهلًا وسهلًا» وبدأ الأقارب يتوافدون بعِيالهم ونسوانهم، وكل واحد منهم يحتَضنني ويُقبّلني ويهزُّ يدي بحرارة حتى انخلعت ذراعي، وحلَّ الغروب وبدأتُ أشعر بالإرهاق فنهضتُ مُحتَضنًا مُودّعًا فردًا فردًا مُترحمًا على الحاجة نفيسة.

في طريقي إلى البيت صادفتُ ورقَةً بإعلان على حائط «الأسطى حسنين النجار». لمَحَني صبيٌّ أتطلع إلي الرقم فوثب ناحيتي: عاوز الأسطى حسنين؟ قلتُ له بحزم: لاء شكرًا، مش عاوز. وقلت لنفسي: « تفسَّخت قوائم المنضدة، هذه حال الدنيا. جميعُنا إلى زوال»،

وأسرعتُ نحو بيتي، والصبيُّ يجري خلفي هاتفًا: «أنادي لك حسانيين .. حسسا نيييين. . حسسا سااا..»

***

بـــطـــــة

راحوا يراقبون بطة وهي تتملص من بين قبضتَي «دبوس». تطلعوا إلى جناحَيها يخفقان في اندفاعها لأعلى. تابعوا بأنفاس محبوسة تحليقها وهبوطها على عمود من خيمة منصوب بالعرض. تلفَّتت بطة إلى ما حولها ونفضت عن ريشها أثر اليد التي كانت تقبض عليها، وراحت تنغز الهواء بمنقارها يمينًا ويسارًا، تصيح حانقة مهتاجة: كاك! كاك! اطمأنَّ أهل السوق إلى أن أحدًا لن يمسَّها الآن، فانزلقت أبصارهم إلى الأرض واندفعت دماؤهم إلى الرءوس، وفي لحظة، تحت سماء ثقيلة مغمورة بالصمت، شبَّت المعركة. ارتجَّ الهواء بجلجلة الساخِطين وهم ينقضُّون على دبوس مُحصل الضريبة في السوق، غاصت قبضاتهم في أضلاعه. غارت في أصداغ أمناء الشرطة. تحوَّلت أرجل الكراسي إلى شُوم صلب يهوي على دراجة دبوس النارية. نزفت أنوف. نشعت أكمام الجلابيب من سَيل الدم، بينما بطة من موقعها المُرتفع تُحدق بما يدور، وكلما انحسر مَوج الرجال من حول دبوس دفعت منقارها المُفلطح وارتدَّت به صائحة: «كاك»! فيشتد أزْر الرجال، وتكبس النسوة على دبوس لعضّه من ساقِه وهو يرفس بقدمَيه.

من ربع ساعة، أو حتى من عشر دقائق، كانت سوق بلقاس هادئة. الباعة واقفون يُدخّنون قُرب بضاعتهم. فلَّاحات القرى يفترشن الأرض. أما مهن مشنَّات خوص فوقها خضروات وبيض. باعة الشاي يطوفون بالصواني وينبهون الشاردين برنين ملعقة على حافة كوب. أطفال عُراة تقريبًا يتواثبون حول أمهاتهم. لم يكن ثمةَ ما يُنذر بمعركة، إلى أن ظهر دبوس. هبط من على دراجته النارية وربطها بسلسلة إلى البوابة. تمهَّل في مدخل السوق وتوقَّف عند أم محمد التي تربعت بطرحَتِها السوداء وتحت بصرها بضاعتها من الفطير وقطع الجبن، لصق فخذها جوال خيش أطلَّت من فتحته بطة بعُنقها. كانت أم محمد قد باعت كل ما لديها قبل ظهور دبوس، ولم يبقَ سوى البطة أو فاطمة كما كانت تُخاطبها. لم تكن راغبة في بيعها لأن بطة نامت وأكلت ولعبت وكبرت مع الأولاد، لكن مرض سعد وعجزه ضيَّق عليها الخناق. في السوق فقط خطر لها أن تبيع بطة على الأقل لأفندي مُحترم أو ست هانم؛ ربما يكون ذلك وداعًا يليق بغلاوتها. في هذه اللحظة ظهر دبوس موظف قسم الإيرادات بمجلس المدينة. قصير القامة. مُمتلئ. تتقدَّمُه صلعة كابية، ذو صوت حادّ في باطنه شيء مُنفر. قال لها: «خمسة جنيه رسم نظافة السوق». عدَّلت من طرحتها وقالت له: «وأنا مالي ومال النظافة يا ابني؟ هو أنا لا سمح الله كنت وسَّخت مكاني»؟ لوح بدفتر الضريبة قائلًا: «رسم النظافة على الكل. خلّصينا. أنا ما زال قدامي السوق كله». انقبضت ملامحها: «رسم نظافة إيه؟ هو أنا كنت دابحة خروف ودمُّه سايح على الأرض»؟ جال دبوس ببصره في ما حوله بحثًا عن أمناء شرطة السوق، وما إن رأى اثنين منهم حتى لوَّح بيده، ونادى بصوت عال: «يا حضرة الأمين. لو سمحت». اقترب الاثنان على مهل. أشار دبوس إلى أم محمد: «مُمتنعة عن دفع رسوم النظافة». استندت أم محمد بكفَّيها على الأرض وقامت واقفة تلهث: «تاخد خمسة ليه؟ أنا بكسب كام يعني؟ دول كلهم عشرين تلاتين جنيه بالعافية». تابع الباعة الآخرون من طرف أعيُنهم ما يدور، ثم راحوا يتاقطرون على المكان يُراقبون الخناقة بصمتٍ ونظرات مكهربة.

إبراهيم صاحب نصبة الشاي. سنيّة بائعة الزيت. عوض بائع اللوف. صابرين أم الزبدة الفلاحي. عيال ونسوة السوق. انتبه دبُّوس إلى تزايُد أعداد الواقفين في الحلقة المضروبة حوله فقال لأم محمد بحسم: «خلّصينا بالذوق عشان نشوف شغلنا. يا تدفعي يا آخُد البطة نحبسها في مجلس المدينة». شهقت أم محمد ودقّت على صدرها مذهولة: «تحبسها؟ تحبسها ده إيه؟!» ولو أن «دبوس» نطق بأي كلمة ما عدا «نحبسها» لربما اتخذت الأحداث مجرًى مُختلفًا، لكن لفظ «الحبس» أهاج نفوس الناس كملح على جرح، فانتفخت عروق رقبة عوض وتقدم إلى «دبوس» وفنجل فيه عينيه: «أنتم أي حاجة عندكم حبس»؟ مصمصت سنية بشفتيها: «طيب ما دام كده ماحدش فينا حيدفع مليم أحمر يا سي دبوس». طقَّ دبوس غضبًا من التمرد فهتف: «أنا قلت يا تدفعي الفلوس يا آخد البطة أحبسها». زعقت أم محمد: «طيب جرّب تمد إيدك على فاطمة كده. جرب»! تدخَّل أمين الشرطة يهون على دبوس: «خلاص يا أستاذ دبوس، أنت موظف حكومة لك احترامك، ما تصغرش نفسك». اهتاج دبوس من أنه أصبح موضع مُواساة فزعق قائلًا: «لاء. أنا مش صغير. لاء»، وهجم على الجوال الذي تطلُّ منه فاطمة فصدَّرت أم محمد نفسها له تحُول بينه وبين الجوال. دار بذراعه حول خصرها المُمتلئ نحو الجوال فزغدته بقبضتها في كتفه بقوة: «شيل إيدك من على فاطمة. قطعت إيدك». بحلق فيها: «أنت ولية قليلة الأدب». تقدَّم إبراهيم منه فاردًا صدره مُؤرجحًا سبابتَه في وجهه: «حرَّص على كلامك يا دبوس». جُن دبوس من أنه حتى إبراهيم الصايغ قد خاطبه باسمه مجردًا، فاندفع إلى الجوال يجذبه إليه، وأم محمد تجذبه ناحيتها، فتركَه وأمسك بطةً من رقبتها ورفعها في الهواء، قبض عليها، لكنها تملَّصت منه وانسلَّت تُرفرف عاليًا وسط ذهول الجميع وصمتِهم وهم يتابعون خفق جناحَيها، وما إن استقرت آمنةً على العمود المرتفع حتى نشبت المعركة. نشبت على الفور، ومن دون أن يلفظ أحد بكلمة غاصت القبضات في أضلاع دبوس ونشعت أكمام الجلابيب بلون الدم الأحمر، وارتج الهواء بجلجلة الساخطين، وتعالى صراخ الأطفال، وهرول دبوس إلى كشك صنبور المطافئ، احتمى به، فانقضَّ عليه الرجال، وأم محمد تُراقب اجتياح الرجال وإحجامهم، تلقي من حين لآخر نظرة على بطة، وكلما رأت بطة تزعق: كاك! كاك! دارت أم محمد بقبضتها في الهواء هاتفة فيها: «ينصر دينك ياغالية»! فتتلفَّت فاطمة حولها، مرشوقة في السماء، تُمزق الهواء بصيحتها ويتداعى منها في الأفق صوتها الرنان.

***

لمحتُها واقفة على رصيف العمارة. شابَّة خمرية ملفوفة القوام تُحرك رقبتها بحدة من اليمين إلى اليسار بحثًا عن سيارة. لمَحتني في اللحظة التي شاهدتُها فيها فلوَّحَت لي بيدها. توقفْتُ بالسيارة بمحاذاة الرصيف. هرولت نحوي. فتحت الباب المجاور لي. دخلت وراحت ترفع جذعها وتهبط به على المقعد الجلدي عدةَ مرات لتُفسح لنفسها جلسةً مريحة. صفقت الباب بقوة. تطلعت أمامها كأنني لستُ هنا، وما لبثَت صَبيةٌ صغيرة بجلباب وشبشب أن فتحت باب السيارة الخلفي وجلست بحذَرٍ وهي تدفع ركبتَيها للأمام. قلتُ للشابة: «إلى أين»؟ تنهَّدت وأرسلت بصرَها إلى مدخل العمارة حيث وقفت امرأةٌ بدينة وكفُّها فوق رأسها، وتمتمت بنبرة خافتة كأنما تُخاطب نفسها: «أنا عزَّلتُ وتركتم لكم العمارة آهه. ارتاحوا بقى. سبع سنين قافلة على روحي. وكل يوم أحاول أفهّمكم إن الحياة محبَّة، وإنه مفيش أجمل من الابتسامة الحلوة. وإن الدنيا لا تساوي شيئًا منَ غير إحساسنا ببعض، لكن مفيش فايدة، ولأني وحدي تهيَّأ لكم إني لقمة طرية. ليه بقى تهيَّأ لكم إني لقمة طرية؟ لأنكم زبالة. تفو عليكم وعلى أبوكم جزَم». أنهَت خطابها المهموس وقد أدركتُ أنه مُوجَّهٌ إلى السكان الذين لا أراهم، فأعدتُ عليَها سؤالي: «إلى أين»؟ التفتت نحوي بتكشيرةٍ كأن صوتي أزعجَها: «درب الغزال». وضعتُ يدي على ناقل السرعات وفي تلك اللحظة سمعتُ رنةً من المحمول إشعارًا بوصول رسالة لي. أجلتُ النظر فيها ورحتُ أمرق بين عربات الخضراوات في زحام شارع الفيومي. اختلستُ نظرة خاطفة إلى جانب وجهها. كانت تتنهَّد سارحة وملامحها تتقلَّب ما بين ابتسام وغضب. بلغنا أول الشارع الرئيسي، حينذاك تناهى إلي سمعي زنٌّ خفيف من الكنبة الخلفية. استدارت الشابة بكتِفِها إلى البنت الصغيرة في الخلف تُخاطبها بحنان: «أنت بتغني يا بت»؟ هزت الصبية رأسها بالنفي كأنها ضُبطت متلبسةً بجريمة. حدقت بها الشابَّة بعطف. قالت تُطمئنها: «وماله لما تغني؟ عاوزة تغني .. غنّي .. ما تخافيش من حد. مفيش حاجة تخوّف. اللي في الشارع دول كلهم بني آدمين عاديين. ما تخافيش من حاجة يا حبيبتي». ومدَّت كفها تُربّت بها على ركبتي البنت برفق ثم اعتدلت ناظرةً أمامها. شفطت بطنها. ضبطت حزامها على خصرها وسرحت من جديد. كنتُ أقود السيارة وقد شغلني التكهُّن بمحتوى الرسالة التي وصلتني فسهوتُ عن الملف المؤدي إلى وسط البلد وتجاوزته. زعقت الفتاة فيَّ بحدة: «إيه ده بقى يا أستاذ؟ سبت الملف ليه»؟ زعقَت ووجهُها مُلبَّد بالانفعال يرتجف. واصلت بصوت حاد: «لا .. أنا تركيبة دماغي مُختلفة. أنا لِعلمك أقول للأعور أنت أعور في عينه، وأنت عَملت اللفة دي عشان المشوار يطول والعداد يحسب فلوس علي». وضَّحتُ لها معتذرا: «لا والله .. أنا بس كنت بأفكر في حاجة». شعرت بأنها انفعلت بأكثرَ مما يستحقُّ الموضوع فأضفت: «لو تحبّي اخصمي أي مبلغ من أجرة المشوار». رقَّت ملامحها مرةً واحدة وقالت: «لاء. مش الفكرة. المسألة إحنا ليه ما ننقلش لبعض مشاعر حلوة بدل ما نؤذي بعض؟ أنا شخصيًّا بأحب الناس زي عنيَّه، لكن معظمهم مبدؤهم الوحيد السفالة. جزم». لزمتُ الصمت وأنا أعود إلى الملفّ تحت الكوبري. أردفَتْ تقول: «عندك مثلًا الأسبوع اللي فات أنا تعرضت فيه لمؤامرتين فيَ الشغل، اثنين، وطلعت

سليمة. اللي عمل فيَّ كده زملاء عمل، من يوم ما استلمت الشغل وآنا بأوضّح لهم إن الحب أساس الحياة وإن الحب الطاقة اللي بنتغلَّب بيها على أي شيء. لكن مفيش فايدة. ليه مفيش فايدة؟ لأن الواطي حيفضَل طول عمره واطي مهما عملت معاه». ولوهلةٍ شفَّ وجهها عن هدوءٍ وطمأنينة. استرسلَتْ تقول: «وبعدين أنا قاعدة وقافلة عليَّ باب شقتي. بس أروح الشغل وأرجع أنام شوية، أقوم أتفرج على التلفزيون، أشتغل مفارش كروشيه للعرايس أروح بها لمعرضٍ يبيعها، لا حد بيزورني ولا بأزور حد. قصدي مش عاملة قلق لأي إنسان». وأطلقت ضحكةً قصيرة خاطفة كانفتاح جرحٍ وأضافت: «بس عشان أنا في حالي اتهيَّأ لهم إني بأخاف. حأخاف من إيه؟ الناس همّ الناس في كل مكان». تطلعت فيَّ بنظرة قلقة كأنها تستقرئ عينيَّ وسألت: «صح ولا أنا غلطانة»؟ قلت لها: «صح .. طبعا». كنتُ أغمغم تعقيبًا على كلامها وأهز رأسي لتشعُر أنني أُتابع حديثها، وأنا موزَّع بين الإنصات وقيادة السيارة. صمتت لحظات، وضحِكَتْ ضحكةً عالية بدون سبب، ثم عادت إلى الكلام وهي تتلفَّت برقبتها بحدَّة إلى أن دخلنا منطقة الناصرية. سِرنا قليلًا ببطء إلى أن أشارت إلى عطفة على اليمين وقالت: «بس هنا. درب الغزال. أيوه هنا. آهي العمارة اللي أخدت فيها سكن جديد». وأشارت بذقنها إلى بيت قديم مُتهالك من ثلاثة طوابق، وقف عند مدخله رجلان يُدخنان وأربعة أطفال على ظهورهم حقائب مدرسية. أوقفت السيارة. ظلَّتْ جالسةً لحظات وقد أرسلت بصرها إلى الواقِفين عند مدخل البيت وقالت: «ودول حأعمل فيهم إيه دول؟ تلاقيهم سمعوا إن فيه واحدة سكنت جديد وجايين يتفرَّجوا عليها. يا ترى دول بني آدمين حيقدروا يفهموا إن الدنيا حُب ومشاركة ولا بهايم؟ عموما أنا جئت لكم وحأعلّمكم تبقوا بني آدمين غصب عن عين أبوكم يا جزم». أحنت رأسها على حقيبتها. فتحَتْها بأَصابع مُرتعشة. نظرت إليَّ وهي تُنا ولني الأجرة وفي عينَيها استغاثةُ خوف ووحدة ضارية، حتى إنَّني ارتبكت، فالتفتَتْ إلى البنت وقالت لها: «يالَّا يا صباح»، ثم خرجت ببطء، كأنما لا تريد الخروج، ولبثت واقفةً بمحاذاة السيارة وهي مُمسكة بيد الصبيَّة بجوارها. تطلَّعت إلى مدخل البيت لحظات. شدَّدَت قبضتها على معصم البنت الصغيرة التي تلوَّت مُتألّمة. تقدَّمَت نحو البيت تجرُّ معها البنت، فتحني الصغيرة عودها وتُحاول أن تُملّص كفها من القبضة. تجرها وتخطو متشنجة وغبار خفيف يرتفع من بين قدمَيها. سمعتُها تقَول للصبيَّة بصوت رفيع يحترق مثل عود ثقاب: «ما تخافيش من حاجة. خايفة ليه»؟ وراحت تدفع جسمَها إلى الأمام مُتوهِّجة من شدة الأمل والخوف.

***

ربما

يمكن القول إنه نسيها، تماما، ولم يعُد يتذكَّرها إلا أحيانا قليلة، في الصباح عندما يقف أمام مرآة الحمام يدعك أسنانه بالفرشاة ويقول لنفسه: «ادعك أسنانك جيداً، ربما تتصل وتأتي إليك فنجلس صامتين يُحدق بعضُنا ببعض، تتشابك أيادينا بعصبيةٍ ولهفة، وفي غمضة عينٍ قد نندفع بشوقٍ جارف نتبادل القُبَل». يُخاطبها ربما تسمعه: «بالعذوبة نفسها تُحبين وتذبحين، في صمتٍ ورقة مَن دون كلام». ربما تتصل، ومع أنه ينساها فعليًّا، إلا أنه حين يتلقى مكالمة هاتفية ليست منها يجتهد أن يختصر الكلام وفي خاطره: أنه لا ينبغي أن يكون الخط مشغولًا. ربما تتصل. يفتح باب الشقة ويهبط الدرج، يقول لها: «صارت الدنيا ملونة منذ أن رأيتك ثم أمست مشاهدها أبيض وأسود، الماضي كله، والآن كله، وغدًا كله، مدى رمادي مفتوح لطيور بلا أجنحة، ولو أنك كنت قد سددتَ إلى قلب فارغ، لكنه عامر بك، فمن منَّا — أنا أم أنت — أسالت يداك دمه؟. يجلس إلى مكتبه في العمل. ربما تتَّصل. نسيَها بالطبع، وإن كانت ترِد على خاطره من حينٍ لآخر، إذا غادر البيت في مشوار ينتقي ملابسه بعناية، يرتدي أفضلَ ما عنده، يُلمع حذاءه. ربما يُصادفها وهو في الطريق. «سأبقى أحبك بكل قوة حضوري في الدنيا، وكل قوة غيابي إذا لم أكن في الدنيا». لكنه ينساها بالطبع، وإن كانت تُفاجئه أحيانًا واقفة أمام عينَيه بوجودها المُشع. يحجز وجبة من المطعم ويتردَّد قليلًا، ثم يُقرر أن يطلب وجبتَين. ربما تتصل فأقول لها لماذا لا تأتين الآن نتناول الغداء؟. تأتي ويسرح في صوتها الذي يُشبه قيثارة من الجنة. يقول لها «لا أحزن على كل ما كان، أحزن على كل ما لن يكون». لكنه ينساها. هذا مؤكد. ومع ذلك فإنه حين يرقد للنوم يترك المحمول قريبًا من رأسه. يقول لنفسه من يدري؟ ربما تتصل فيكون جرس المحمول مسموعًا، فإذا اتصلت سأقول لها أمسيتُ أمد يديَّ إلى النور فلا تقبضان إلا على الفراغ، وكانت ألوانك تخفق في العشب والسماء، وسوف تلزم الصمت كعادتها، نعم إنني أعرفها. ستلزم الصمت، لأنها لم تعرف بعد أنني أنساها. أقول لها: «ها نحن عند مُفترَق الطريق، يُمعِن كلٌّ منَّا النظر في الآخَر، طويلًا وببطء، ننفصل عن روحينا، مثلما تنفصل الوردة والغصن، ينفصلان ويبقى عطرها فيه، وفيها دمه». يستولي عليه النعاس، يهمس أنه ينساها، ينساها .. لكن .. ربما .. ربما ماذا؟

***

لم أكن قد رأيتُه منذ زمن، لكنني فوجئتُ به مساء اليوم وأنا أشق عتمة الشارع إلى منزلي، كان واقفًا يترنَّح مستندًا بكفّه إلى جدار عمارة، وهو يتنفس بصعوبة وقد بدا الإنهاك واضحًا عليه. لبثتُ صامتًا أنظر إليهَ. انقضى زمنٌ طويل منذ أن صادفتُه أول مرةٍ في مولد السيدة زينب، حين كنَّا صغارًا نقصد المولد لركوب المراجيح أو للتفرُّج بألعاب سيرك داخل خيمةٍ مُهلهَل قماشها. رأيته حينذاك قرب جدار المسجد. جذبني إليه وجه أسمر وسيم، وشارب صغير، وبسمة مُخاتلة ماكرة. كان واقفًا تحت بصرِه صندوق خشبي على ثلاثة قوائم، يجري بين أنامله ثلاث أوراق لعب بصوَر الولد والبنت والشايب. اقتربتُ منه ووقفت بين العيال الآخرين أتابعُه وهو يرفع عاليًا أمام وجوهنا صورة البنت ثم يخلطها بسرعةٍ مع الصورتين الأُخريَين، مرةً وأخرى ثم يضع الأوراق الثلاث مقلوبةً على سطح الصندوق، ويُنبهنا بقوله: «البنت هي الإجابة التي تفوز. أين البنت»؟ مددتُ إصبعي عدة مرات إلى ما تخيلتُه صورة البنت، لكني خسرت مرات عديدة ودفعت في كل مرةٍ قرش صاغ وأنا مذهول من ثقتي السابقة المُطلقة في موضع الصورة. كانت الأوراق الثلاث مُلقاةً تحت بصري ثابتة، أُحدق بها، لكنني أخطئ مرةً بعد الأخرى كأن القدر يسخر بي.

بعد ذلك بنحو عام قصدتُ مولد السيدة، ورحتُ أفتش عن الرجل لكني لم أجده، وخاب أملي أن أراه وأربح ولو مرة. درتُ بين خيام الألعاب وحلقات الذكر ولم أره، ثم انقضت نحو عشر سنوات، وتعلق قلبي بفتاةٍ من سنّي، وكنتُ قد نسيتُه تقريبًا إلى أن فوجئتُ به يمشي بجواري وأنا خارج من الجامعة أتجه إلى محطة الأتوبيس. دققت في هيئته .. هو .. لم تتبدَّل ملامحه تقريبًا. نفس البسمة المُخاتلة الجذابة. بسط صندوقه الخشبي على الرصيف، وأبرز صورة البنت بجدائلها الطويلة، وخلطها بالصورتين الأُخريين بسرعة البرق، ثم فرد الثلاث على سطح الصندوق وقال لي بنظرةٍ تشعُّ مكرًا: «أين الصورة الرابحة»؟ تذكرت خيباتي السابقة في الفوز فترددتُ في الإشارة إلى الصور، فبادرني بالقول: «ثلاث ورقات. الحب هو التفاهم. الحب هو الرغبة. الحب هو الألفة». رفع الأوراق وعاد يخلطها بسرعةٍ ووضعها تحت بصري. مددتُ إصبعي أشير إلى الورقة، فرفعها إلى أعلى. لم تكن البنت. خسرت. رآني واجمًا فربَّت على كتفي قائلًا: «لا تبتئس. هي اللعبة. المُهم الاستمرار». حمل صندوقه وترك المكان، ولوَّح لي بكفه من بعيد وهو يختفي وسط الزحام.

قبل أن أنهي تعليمي الجامعي كان لي صديق أكثر من أخ، أكل في بيتي، وارتدى قمصاني، وما إن احتجتُ إليه مرةً حتى أظهر أنه غير ما تخيلتُ فقطعتُ علاقتي به، وكنتُ أحكي ما جرى لزميلٍ لي في العمل ونحن جالسان في مقهى، وحين غادرتُ المقهى رأيت الرجل قرب كشك السجائر الملاصق لمحطة الأتوبيس. أبرز لي الورقات الثلاث وقال لي: «اختر. الإنسانية أن تغفر. الإنسانية أن تردَّ الصاع صاعَين لكي لا يطمع فيك الآخرون. الإنسانية أن تُحِبَّ البشر كما هم وليس كما تريد لهم أن يكونوا». خلط الأوراق بسرعة ووضعها تحت بصري ولم أستطع الوصول إلى الصورة المنشودة.

بانقضاء عشرة أعوام سنحت لي فرصة السفر إلى الخارج، فوجدته إلى جواري وأنا لم أحسم أمري بعد، رأيته بنفس البسمة الماكرة الجذابة، لكنه كان قد كبر قليلًا. أبرز الأوراق الثلاث وتركها معلقةً أمامي في الهواء لحظات، ثم قال: «في السفر سبعة فوائد. الوطن لا يتكرر ولا يستبدل. الوطن ليس فندقًا نهجرُه إذا ساءت فيه الخدمة». خلط الأوراق وبسطها وقال: «اختر». لكني لم أستطع الوصول إلى صورة البنت.

عدتُ من السفر بعد أكثر من عشرة أعوام، ولم يُصادفني الرجل، ولا عاد يطرأ على بالي حتى مساء اليوم حين رأيتُه واقفًا يترنح لصق جدار عمارة مستندًا بكفه اليُسرى إلى الجدار، خامدًا، وقد انطفأت في عينَيه النظرة المازحة المخاتلة كأنه ظلَّ على التراب تحت ضوء القمر. لبثتُ أتطلَّع إليه أترقب أن يقول شيئًا بعد كل تلك السنوات لكنَّه لم ينطق بحرف. قطعت الصمت الكثيف الذي اكتنف الشارع والأشجار وسألته: «أين الأوراق»؟ مال رأسُه متعبًا يمينًا ويسارًا. تلامسَتْ ركبتاه ترتجفان، ثم انهار على الرصيف. فرَدَ ساقَيْه أمامه يلهث ثم مدَّ ذراعه إلى جيب الجاكتة، لكن يده انزلقت خارج الجيب عدة مرات فأعاد الكرَّة بعصبية إلى أن استلَّ ورقة واحدة ورفعها إليَّ. رأيت الورقة من ظهرها المنقوش بمثلثات حمراء دقيقة، أما الصورة فكانت مَخفية في الناحية الأخرى. لمح أنني مشوش فتمتم بمشقة: «لم تعد أمامك فرصة للخطأ. هي ورقة واحدة أخيرة». قالها وتراخت ذراعُه إلى جواره مغمضًا عينَيه فانفكت أصابعه عن الورقة وارتفعت تُرفرف قرب هامات الشجرة وأنا أتبعها ببصري، ثم توقفت في الجو لحظة، فهرولت مُتقدمًا صوبَها وقد فردت ذراعيَّ لأمسك بها، لكنها رفرفرت ثانيةً وارتفعت متقدمةً إلى الأمام. توقفتُ أراقبها حتى سكنت في الجو لحظة، وقبل أن أندفع صوبها حلقت عاليًا بعيدًا في العتمة والسكون فظللتُ واقفًا مكاني تحت ضوء القمر في غمرة الصمت المُطبق غير قادر على الحركة.

***

شـجــن

كنت أمضي في الشارع لا أذكر إلى أين حين سمعت عن يميني صوتًا بدا أنه صوت أحد الأصدقاء، لم أر وجهه، لكني سمعت صوته يقول لي: أخوك اسحاق تُوفي، الله يرحمه. التفتُّ إلى اليمين فرأيت على قارعة الرصيف أمام عمارةٍ صفَّين من الكراسي، وفي القلب منها حلقة من الجالسين تتوسطها شابةٌ جميلة في فستان بنفسجي بصدر مفتوح. لم تكن تضحك أو تبتسِم، لكن ملامحها كانت تشي بسعادة مكتومةً. قلت لنفسي: إن كان الصوت قد نبَّهني إلى وفاة اسحاق فقد أراد أن ينبهني إلى أنهم هنا يتلقَّون العزاء فيه. تذكرت اسحاق. الطيب سيئ الحظ الذي ناكفَتْه الدنيا ولم تُعطه حقه لا تقديرًا ولا مالًا ولا جاهًا. جرت دموعي بداخلي حزنًا. تعرَّجت بين الكراسي وتقدمتُ أصافح المرأة الشابة مُقدرًا أنها زوجته. نهضت وضربت بيدها فستانها تساويه ثم ضغطت على كفِّي تَبثُّني بعينَيها التأثر والعرفان. قالت بحرارة: كثَّر خيرك. كثَّر خيرك. اتخذت لنفسي مقعداً ملاصقًا لجدار العمارة. تراءت لي صور من حياة اسحاق الطيبة، وانصياعه السّلمي للأقدار، فاغرورقت عيناي بالدموع وسرعان ما انهملَتْ على وجنتي. كنتُ مُنفعلًا، مضطربًا، لا أستطيع البقاء طويلًا. قمت وقصدت المرأة الشابة. وقفت أمامها بنظرة ثابتة لأودّعها. أخذَتْ يدي بين كفَّيْها بعطف وقالت: ليتك تدعو أصدقاءك للحضور إلى عزاء اسحاقَ، إنه على بُعد أمتارٍ من هنا. تعجبتٌ وأنا أمرُّ ببصري على الناس والكراسي. قالت: هذا عرس لكنه باحتفالٍ بسيطٍ، أما عزاء اسحق فإنه في المبنى المجاور، خطوتان من هنا.

شققتُ طريقي وأنا أتخبَّط بين الكراسي. هبطتُ من على الرصيف مرتبكًا مشوشًا. قلت لنفسي: «لكني بكيتُ عليه بالفعل ولن يكون بوسعي الآن أن أذهب إلى المعزى وأجلس ثانيةً وأستثير انفعالي ودموعي بالعمد، ذلك سيكون تأديةَ واجب، أما الحزن فقد غمرني داخل العرس».

***

خطـاب شـكـر

معالي الوزير. ندعو الله أن يَصِلكم خطابُنا وأنتم في أفضل حال وأتم صحة، لنرفع إليكم آيات التقدير من أهالي، وجمعيات، ومُعلمي وطلاب المدارس، وعمال الإسعاف والمرور، وموظفي الشهر العقاري بالمحافظة، وأيضًا من روَّاد ندوة «مقهى إبراهيم» الثقافية ربع السنوية. بلغَنا خبر زيارتكم محافظتنا قبل موعدها المُقرر بثلاثة أيام، وقد حققت المحافظة خلال تلك الأيام القليلة من الإنجازات ما لم يتحقَّق في الثلاثين عامًا الماضية وذلك استعدادًا لاستقبالكم على الوجه الأمثل. نُشير بداية إلى تعاون أجهزة المحافظة لطلاء واجهات أكثرَ من ألف وخمسمائة بيت باللون القرمزي الفاتح في الشوارع التي سيمرُّ بها موكبكم، وحدث أثناء ذَلك، بسبب الاستعجال، أن تعرَّضَت إلى الطلاء بعض الوجوه التي تصادف ظهورها من النوافذ، ونُقل إلى المستشفى ثلاثة أشخاص فقط عانَوا من غشاوة على العين، يجري علاجهم الآن على نفقة الدولة.

وقد قُمنا خلال تلك الأيام القليلة بإصلاح كهرباء إشارات المرور الثلاث، فأصبحت إذا أضاء اللون الأخضر في شارع عمودي، ظهر الأحمر في الشارع المتقاطع، بحيث لا يعود الأخضر ويُضيء في الناحيتيَّن في نفس الوقت، كما كان من قبل. وتمَّ بعَون الله ترميم وإصلاح كوبري عنبة الذي تهدَّم عقب حفل المطرب الشعبي شفيق جلال عام 1959 في مسرح المدينة، وأصبح الكوبري صالحًا لعبور التلاميذ من دون أن يتساقطوا في الترعة، بعد أن كان الأهالي قد اعتادوا تعليم أولادهم السباحة حتى إنه نشأ عندنا جيلٌ من عظماء السبَّاحين. ورغم ضيق الوقت فقد استكملنا بناء الطابق الأول من سنترال التليفون الذي بدأ العمل فيه صيف 1971، ولا ينقُصه الآن سوى تركيب حلوق الشبابيك والأسقف ومواسير المياه وتوصيلات كهربائية. أما وسط المدينة فقد أصبح تحفة، خاصة الحديقة التي تضمُّ تمثال طه حسين، فقد قُمنا بغسل وتنظيف التمثال أكثر من خمسين مرة بالصابون والسلك واللوف، حتى برق وجهه وظن البعض أنه نجم سينمائي، واقترح الأخ حسنين؛ سكرتير الشئون المالية أن نضع نسخة من خطابكم في مجلس الشعب على رُكبتَي عميد الأدب العربي، ليبدوَ العميد كأنما يقرأ خطابكم مسروراً بما فيه، لكن أحدهم ذكَّرنا أن العميد كان ضريراً فلم يتم الأخذ بالاقتراح بالرغم من وجاهته.

أخيرًا معالي الوزير..

فقد ابتدعنا ثلاثة أكشاك تتحرك على عجلات دوَّارة، مزودة بصحف وكتب، تراها في أول الطريق وأنت تقطعه بسيارتك، وما إن تتجاوَزها حتى تدور الأكشاك على عجلاتها بسرعة تنهب الشوارع الخلفية لتبرُز مُجددًا أمامك في منتصف الطريق، وهكذا حتى يصل موكبكم إلى ديوان المحافظة. أيضًا فقد قامت الفنون بدور مُهم في الاستعداد لاستقبالكم، وأعد طلاب مدرسة الفردوس الثانوية بنين أغنية جاء في مطلعها:

«يا وزير يا وزير، جئت بالسعد الغزير، فتراقصت أمواجنا، في النهر وبعمق الغدير، تدعو لك بالصحة، والسؤدد الحلو الكبير». قام بتلحينها الأستاذ صبحي مُدرس أول الموسيقا بالترقِي الثانوية بنِين. وكان هناك اقتراح بتغيير كلمة «السؤدد» في الأغنية، لكن الشاعر

شعبان السيد تمسّك بها، وقال إن للسّؤدد عنده ذكريات عزيزة عليه. في الوقت نفسه قرر القسم الإعلامي بديوان المحافظة إصدار كتيب تذكاري مُذهَّب الأطراف باسم «مدينتنا الجميلة» عن آثار بلدنا، يحتوى على كلّ صوركم منذ طفولتكم حتي الآن. ومع أنكم لم تتمكَّنوا من زيارتنا لأسَباب جليلة، إلا أنَ مدينتنا أصبحت في ثلاثة أيام منظمة وجميلة، نظيفة ومضاءة، لهذا فإن لناً جميعًا أملًا أنكم إذا لم تتمكَّنوا من تشريفناً قريبًا، أن تقوموا، على الأقل، بالإعلان عن زيارةٍ من وقت لآخر. لكم جزيل الشكر باسم الأهالي والجمعيات وندوة «مقهى إبراهيم» ربع السنوية، وأصدَق المشاعر من الشاعر شعبان السيد مؤلف قصيدة «يا وزير يا وزير».

***

فجأة رأيته. شوقي فهيم، نعم. هو. اللغز الذي حيَّرنا سنوات الاعتقال ولم نصِل إلى سرِّه. قضيتُ نحو عامَين في الحبس وخرجت وظل شوقي وراء الأسوار. لم أره من ساعة خروجي، لكنه شوقي. نعم. لا شك في هذا. كان قادمًا من الاتجاه المُقابل. يسير على الرصيف بقامته الطويلة، تلفُّه سكينة من توحُّده، يتفرج بواجهات المحلات. لم يرَني ونفسي تجيش بذكريات عزيزة عكَّرتها درجة من الحذر جعلتني أتردَّد في أن أستوقِفه، فتثاقلت خطواتي وأنا أتلفَّتُ وأهمس لنفسي «أليس من الأفضل أن أواصِل سيري»؟ مِن شَتَت التردُّد تولَّدت صور قديمة من الحبسة التي جمعتني به سنوات لم يَبُح شوقي خلالها بسبب سَجنِه ولا ألمح إليه، وكان يروغ من الإجابة بلباقةٍ إذا تطرَّقنا إلى الموضوع، وها هو الآن أمامي، لغزًا ما زال، بهدوئه ولُطفه.

ضِقتُ بحذَري ومخاوفي فقطعتُ الطريق عليه، وقفت أمامه فاتحًا صدري ووضعتُ يدي اليُمنى على كتفه. التفت إليّ. حدَّق بي مذهولًا. صاح بدهشة: «معقول»؟! ضحكتُ سعيدًا أنني استوقفتُه وقلت: «نعم. معقول جدًا». رنا إليَّ بنظرة تألقت بالتذكُّر ثم السرور: «يا سلام .. مفاجأة .. وأي مفاجأة»! اندفع ليُعانقني، وصددتُه لأستبقيَ وجهه أمامي. هتف مبتسمًا: «الدنيا صغيرة حقًّا. دعنا نجد مكانًا لنجلس وندردش. أي مكان». أحنَى رأسه إلى أسفل كأنما يُفتش بين أقدامِنا عن موضع ثم اعتدل وقهقهه مندهشًا ممَّا فعله. سِرنا على مهلٍ نبحث عن مقهًى. كلٌّ منَّا يُربِّت على كتف الآخر، ويُقاطعه بكلمات الاشتياق ونُتَف الذكريات والاستفسار عن الحال.

في العنبر بالمُعتقل حافظ شوقي على مسافةٍ محسوبة بينَه وبيننا، لكنه كان يُقربها بالتودُّد وتقاسُم السجائر والنقود والأطعمة التي تأتي بها أُخته في الزيارات الشهرية. كان يومُنا محكومًا بنظام حياة مُتكرّر، الصحو مبكرًا والإفطار والشاي، وطابور الفسحة الرابعة عصرًا حين يخرجون بنا إلى فناء المعتقل المُغطى بالرمل الأصفر، وأيادي كلِّ اثنين منَّا مُقيدة بسلسلة. وكان شوقي يُفضل صحبتي فنقطع معًا الفناء الأصفر في دورات، تُتابعنا من الأكشاك الأربعة أعلى الأسوار أعينُ وبنادقُ الحراس. لم يكن شوقي يتكلَّم كثيرًا، لكنه كان يُعرب بمرارةٍ عن أسفه على إغلاق مكتبه الهندسي، وانفصال زوجته عنه، أحيانًا قليلة يتحدث عن مشاريع المستقبل عندما يُطلق سراحه. لكنه لزم الصمت تمامًا عن سبب حبسه حتى تصوَّر البعض أنه مدسوس علينا ليتلقَّط أقوالنا. لم أسترحْ منذ البداية إلى ذلك الارتياب مُهتديًا بشعوري بأن إنسانًا له نظرة شوقي المستقيمة الواضحة يستحيل أن يبيع نفسه لمهمةٍ رخيصة، لأن لأولئك نظرة مختلفة، جارحة ونادمة، أقرب إلى شظايا روح تحطمت. يعودون بنا ويُغلقون باب العنبر في الخامسة عصرًا، وفي المساء يتضح لنا بقوة أننا محبوسون بالفعل، ويزول في العتمة آخِر أمل أن نفتح لأنفسنا طريقًا إلى الخارج؛ إلى الهواء والحرية، فينفتح الطريق إلى الداخل حيث الذكريات والماضي وأسماء الزوجات والأبناء وعبارات من أفلام قديمة ونِكات لم تعد مُضحكة بالمرة. يُصبح الماضي حاضرًا، ويُورق كل ما ولَّى وذبُل، لولا أن الحياة عنيدة تُدافع عن حقِّها في البقاء فتسُوقنا إلى اختراع حاضر، نصنع كوتشينة من

أوراق علب السجائر، نتجمّع في حلقات حول حشايا النوم، نفتح نقاشًا سياسيًّا أو فكريًّا، وفي تلك الأثناء يجلس شوقي صامتًا يُنصِت لنا بتعبيرٍ مهذب، مكتفيًا بهزة رأس أو كلمةٍ مقتضبة لا تؤيد رأيًا ولا تختلف مع أحد. بمرور الوقت نشأت بيننا قرابة روحية من صرير الأبواب الحديدية الذي يَفري أعصابنا، ومن التحديق بخيالات الأحبَّة بسقف العنبر في الليل. لكن حتى تلك الصّلة لم تدفع شوقي إلى الفضفضة الصريحة مع أيٍّ منَّا، إلى أن حدث ذات يوم أن أقبل الشاويشَ شعبان مهرولًا في الممرّ بين الزنازين متجهًا نَحو عنبرنا. توقف عند الباب يلهث، ثم همَس في أُذن عمّ طاهر يُحذره من كبسة تفتيش قادمة. شكره عم طاهر وغمزَه كالعادة ببضعة جنيهات أخفاها الشاويش في جيبه واستدار مُنصرفًا. وصاح بنا عم طاهر من حيث يقف عند فتحة الباب: «كبسة يا زملاء .. كبسة .. خبئوا كلَّ شيء». أشاع صوته المتوتر الاضطراب فينا. هبَّ من كان راقدًا على الحشايا واقفًا، وتلفَّت آخرون في كل اتجاهٍ يُفتشون بعيونهم عن مخابئ للممنوعات، وهي الأقلام والورق والكتب. وكان عند شوقي دفتر صغير يحتوي على القصص التي كتبها زميلُنا العجوز، أستاذ كامل. أخفى شوقي الدفتر في أقرب مكان خطر له في غمرة اللهوَجة والارتباك. وقفْنا بعد ذلك في حلقات متباعدة من ثلاثة أو أربعة أفراد نتظاهر أننا نُدردش في أمور اعتيادية، وما لبث أن ظهر ضابطٌ شابٌّ يتبعه أربعة عساكر. اقتحموا المكان، وراحوا يُفتشون جيوبنا ثم تفرَّقوا يُولِجون أصابعهم في ثقوب الجدران، وأخذوا يَبقرون بطون الحشايا، ولم يعثروا على شيءٍ فاستداروا، والضابط في المقدمة، مُنصرفين من دون كلمة.

ارتخَتْ أعصابنا المشدودة. تمدَّد البعض على الحشايا يفرد ساقَيه ويهدأ. أشعل آخرون سجائرهم بأصابع مُرتجفة. تحرَّكنا بعد أن استرخَينا لنُخرج ما أخفيناه. هنا ظهر الأستاذ كامل في منتصف العنبر، واقفًا بالبيجاما والشبشب، تابع ببصره استعادة ما أخفيناه، ثم صاح على شوقي بقلق: «دفتر القصص يا باش مهندس»؟ طمأنَه شوقي: «دفترك في الحفظ والصون أستاذ»، قالَها واتجه إلى حيث تقع المَبولة في نهاية العنبر. اختفى بين جدرانها المُنخفضة فلم نعُد نرى سوى رأسه يتحرك. خرج بعد لحظات. وكان كامل قد بسط يدَه لتسلُّم الدفتر. مشي شوقي نحوه ومدَّ إليه عجينةً يقطر الماء من حوافها، ثم تمتم باكتئاب وغم: «متأسف جدًا أستاذ .. الظاهر أعصاب الزملاء فكَّت بعد التفتيش فدخلوا المبولة .. وَ.. وأغرقوا الأوراق». صاح كامل مبهوتا: «تبوَّلوا على قصصي»؟! رحتُ أنقل بصري بين وجه شوقي المتألّم بعجزٍ وبين الذهول الواضح على أستاذ كمال، وشعرتُ بعُمق المهانة التي أحسَّها الرجل العجَوز لأنَّ أعزَّ ما لدَينا عرضة للتبوُّل. لكن بعض الزملاء انفجروا في القهقهة حين سمِعوا «تبوَّلوا على قصصي»؟ وقال زهير لشوقي بجديةٍ مصطنعة: «عليك الآن، تعويضًا للمؤلّف عن خسارته أن تكتُب له العددَ نفسه من القصص، وفي القضايا الطبقية ذاتها، وأن تُنصِفَ الكادحين وتلعن أمَّ الرأسمالية»، فتضاعفت الضحكات وكان مُعظمها تنفيسًا عن التوتر الناجم من التفتيش الذي كان يُمكن أن ينتهي بمنع الزيارات عنَّا أو حبس البعض انفراديًّا.

خرجت من غمرة الذكريات على صوت شوقي: «ها هو مقهى». نظرت حيث أشار بيده فرأيتُ مقهى في شارع جانبي مدَّ الكراسي إلى الرصيف، وبجواره وقفَت عربة كبدة. قطعنا الطريق. تخيَّرنا منضدةً وطلبنا فنجاني قهوة. حدجَني شوقي طويلًا كأنه يغترف من ملامحي

شعوره بالماضي. سألتَه بفضول: «من الذي تَعاودك ذكراه من الحبسة»؟ رفع حاجبَيه. فتح عينَيه على آخرهما. قال مبتسمًا بأسًى: «أستاذ كامل ودفتره. زهير وقصائده». قطع الحديث بائع صحف حامَ حولنا ثم اقترب يعرض علينا الجرائد. صرفناه فتوقَّف عند منضدة مجاورة وأُذناه مشرَّعَتان ناحيَتَنا. لزِمْنا الصمت برهة حتى ابتعد البائع. في نفس اللحظة أطلَّ من عينَي فجأة السؤال القديم، بقوةٍ، محسوسًا، وظلَّ معلقًا في الهواء ما بيني وبين شوقي «لماذا كنتَ معتقلًا»، وعندما استطالت اللحظة خفضتُ بصري، فتمتم شوقي بصوت دافئ مثل ركبة طفل مخدوشة: «لعلك ما زلت تريد أن تعلم لماذا وضعوني في السجن»؟ كنتُ أريد أن أعرف لكنَّني زممتُ شفتَيَّ كأني أقول له إنَّ التصريح بالسبب رهنٌ برغبته. عاد شوقي بظهره إلى الوراء. انسحب بروحه إلى زمن آخر. قال ببطء: «السبب غريب شوية. لقد رأيت حلمًا». لم أفهم ما يقصده. سألته: «حلم»؟ أجاب: «نعم. حلم. رأيت فيه سيَّارة تنعطف عند كوبري، وشخصًا مُلثَّمًا على دراجة نارية يقترب منها بسرعة خاطفة، ثم يفتح النار على من بداخلها من رشاش. مجرد حلم، حتى إني بعدها بيومَين كنتُ في منزل أحد الأصدقاء ورويتُ ما شاهدته على الحاضرين، وكان من بينهم ضابطٌ شابٌّ كان يُنصت إليَّ مبتسمًا». قلت مُستفسرًا: «وما المشكلة في ذلك»؟ قال: «المشكلة أن الحلم تحقَّق بحذافيره بعد أسبوعين من تلك السهرة، فوقعت عملية اغتيال مسئول كبير بواسطة مُلثَّم على دراجة نارية، وحين كتبَت الصحفُ في ذلك تذكر الضابط الشابُّ أنَّه سبق أن سمع بمكان العملية والطريقة التي نُفّذتَ بها، ثم تذكَّر تلك السهرة، وتذكَّرني، وجزم من التطابُق بين ما سمِعَه وما وقع بعد ذلك بأنَّني ضالع في ما جرى، وتقدَّم ببلاغ بما لدَيه، فهبطوا عليَّ في الليل واقتادوني من غرفة النوم إلى القلعة. في حجرة ضيقة خانقة يسألني الضابط: «كيف لك أن تعلم بالدرَّاجة النارية؟ والمُلثم؟ والكوبري؟ إن لم تكن لك علاقة بمن قاموا بالعملية»؟ أقسمتُ أنه حلم فهتف ساخرًا: «لا بد إذًا أنك وليٌّ من أولياء الله لكي يتجلَّى لك المستقبل». انقضت عشرة أيام بلياليها ما بين الزنزانة ومكتب الضابط، الواضح أن الأجهزة كانت تتحرَّى عنِّي خلال ذلك، ولم تجد لي علاقة بشيء فتقرَّر ترحيلي إلى مُعتقل طرة ربما يتَّضح شيء. أربعة أعوام وراء الجدران لأنَّني لم أستطع أن أُثبت أنه مجرد حلم». سألته مهمومًا بأسف: «لكن لماذا أخفيتَ عنَّا كل هذا»؟ ضرب شوقي ركبتَه بأطراف أصابعه قائلًا: «فكرت أنَّ الكلام قادني للسجن مرةً ولعل التزام الصمت أفضل». تنهَّد يسألني: «هل تذكُر الليلة التي جلسنا فيها حول عم طاهر حين أخذ يروي لنا نُتَفًا من ذكرياته في المعتقلات؟ كان مُسترسلًا في حكاياته، ونوادره، وفجأة توقف عن الكلام، شرد، ثم تمتم يُحدّث نفسه كأنما يلومها ويُعاتب القدر: «أخلصتُ العمر كلَّه لقضية، كيف لم يتحقَّق منها شيَء؟ في تلك اللحظة بدا وجهه كأنما مزَّقَت الهواجس والشكوك يقينَه. أما أنا فبقيتُ طوال مدة الاعتقال أُفكر أنَّ عم طاهر كان يعلم ماذا يفعل، ولأجل ماذا، والضريبة التي سيتحمَّلها، بينما حبستُ أنا بالمصادفة، مجرد مصادفة». حاولتُ أن أُفسّر له وأن أهوّن عليه: «هي مصادفة، لكن لا تنسَ أنها في سياق القانون العام. المصادفة تَحدُث فقط حين يسمح بها الوضع العام، وحين تكون جزءًا منه، وتعبيرًا عن المُمكن في ظل ظروف معينة». تأمَّلني شوقي مفكرًا، فأردفت: «وعلى سبيل المثال فإنك لا يمكن أن ترى ولو بالمصادفة جَملًا يمشي في السماء»! ابتسم شوقي وهزَّ رأسه وفي عينَيه دهشة سعيدة بما قُلته.

لزمنا آلصمتَ برهة، وبدآتُ آشعر ببرودة الليل، آحكمتُ ياقة قميصي حول رقبتي والعتمة تتحدَّر من السماء موجًا بطيئًا، تطفو بين قمم العمائر، وتنزلق إلى المنضدة حيث نجلس فتُطفئُ لمعة الملاعق الصغيرة. أدار شوقي إصبعه على حافة فنجانه الفارغ تقدَّم بوجهه ناحيتي وسألني باهتمام: «وأنت .. قل لي .. ما أخبارك»؟ تمتمت: «تمام .. الحمد لله». نهض شوقي واقفًا: «يا أللَّه .. فلندفع الحساب ونتحرك». خرجْنا من المقهى نسير ببطءٍ من دون أن نتكلَّم وقد سرحْنا في الشوارع والأشجار تلفُّها عتمة، وظِلالُها تسيل في هواجس الصمت والسكون الذي شمل المدينة.

***

تجمَّد في مكانه حين رآها. لم يكن ليتخيل أنها قد تظهر له هكذا ببساطة، واقفة في سوبر ماركت. بدا له أن ظهورها المفاجئ يُشبه انزلاق لون من السماء إلى الأرض، في غير مكانه أو زمانه. ولم يكن يدري، قبل أن يراها الآن، في هذه اللحظة، أن عينَيها واسعتان تشعَّان بالحَنان والتوسُّل الوديع، ولا أنها تتفادى ما حولها بحَذَر واحتراس مثل رسالةٍ مغلقة لا ينبغي أن تصل لأحد. هي. نعم هي، التي طالما فتش عنها، كأن حياته كلها كانت سيرًا بدون وعي إليها، يمشي نحوها ولا يدري من تكون. كان يقول لنفسه إنه سيعرف ما يفتش عنه حين يراه أمامه. تأمَّلها. حدَّق بها. واقفة تتطلع إلى زجاجات عطر، في فستانٍ صيفي يُهفهف مثل كبرياء رقيقة، وقد أحاطت صدرها بساعدَين مضمومَين. ربَّتَت بمنديلٍ على زاوية فمها، ثم استدارت بجنبها وهبطت بيديها إلى عربة التسوُّق الصغيرة ومضت للأمام. مشى خلفها وحافظ على مسافة بينهما. كانت تسير وهي تحمي عالَمَها الخاص من الظهور. راحت تتنقل بين أقسام سوبر ماركت كأنها تدقُّ بقدمَيها نغمة على الأرض. تلكأ بالقرب منها في رُكن العصائر. تناول زجاجة جوافة متظاهرًا بأنه يفحص تاريخ صلاحيتها. راح يتملَّى وجهها المنحوت بدقة، ويتوه فيه. هي. نعم هي. وقد ظهرت له الآن ولن تلُوح له بعد ذلك أبدًا.

هي أيضًا أحسَّت وجوده المتوقّد كما يشعر الغصن بدفء الجو. أحست بخطواته التي تتبعها، بتنهُّده المكتوم، بنظرته التي نفذت إليها فاخترقتها وارتفعت بها وهوت ترجُّ كلَّ ما فيها. انعطفت إلى قسم الحلويات لتهرب من حضوره المفاجئ في شعورها. دار فستانها حول ساقَيها دورة، وصارت تُطلق أنفاسها بحساب وتمدُّ يدَها إلى الأرفف مُحاذرة أن تنحني أو ينثني عودها، ثم تساءلت: «لماذا أتجنَّبه؟ أم لعلَّني بحاجةٍ إلى وقت لكي أعتاد حضوره»؟ أبطأت خطواتها شاردةً أمام صناديق الفاكهة، وتوقف هو بالقُرب منها. ولم يكن من أحد سواهما الآن في مساحةٍ صغيرة، يفصل بينهما متران لا أكثر. راقبَها وهي تنحني لتجذب ربطةً برتقال، وارتبكت، وكادت الربطة أن تُفلت من بين أصابعها. قال لنفسه بأمل: «هل تلتفت إليه وتمنحه النظرة التي فتَّش عنها في مئات العيون ليعرف كيف تكون»؟! أحسَّت به الآن بقوة، فلم تستطع أن تكبح نفسها أكثر مما فعلت، فالتفتت إليه خطفًا، ووجدت في عينَيه النظرة التي لم ترها في آلاف النظرات المنفلِتة من كيمياء الروح والعقل. وطرأ لهما بكلماتٍ مختلفة أن تلك اللحظة تُشبه الأبد، تُشبه ما قبل ذلك، وما بعد ذلك.

مضت نحو خزانة الحساب بعربة التسوق. وقف خلفها. رفعت بكلتا يدَيها شعرها المُنسدل إلى الخلف تُرتّبه. أخرجت النقود من حقيبة يدها. سبح ما بينهما شعور هشَّمَه الارتباك. وبدا لهما في اللحظة ذاتها أن عاطفةً في الجو تُهيمن على عاطفة، تنزلق إليها، تنسلُّ منها، وتعود تُحكم كلَّ شيء. استدارت نحوه. أمعنت النظر إليه، وكان مأخوذًا بوجهها الذي تجلَّى، وبالعينين المشعَّتَين بالحنان والتوسُّل الوديع، بينما استقرت عيناها عند ارتجافةِ شفتَيه التي سرَت إلى عنقها وجلدها تجتاح كل شيء. لحظة واحدة ثبَّت كلٌّ منهما بصره في الآخر، وأحسَّا بحرارة الحريق.

عادت ببصرها إلى المُحاسب تتسلّم منه بقية النقود. جمعت ما تسوَّقتّه في كيس وقبضت عليه بيدها اليسرى. تحركت صوب باب المحل. هبطت ببطءٍ الدرجات الثلاث التي تفصل عتبه المحل عن الرصيف، وراحت في اللاوعي تُحصن نفسها بصورة المرأة القوية التي لم يُرهقها الحنين. فتحت باب السيارة. دخلت وجلست أمام المِقود. أرسلت نظرةً إلى عتبة المحل، ما زال واقفًا هناك على الدرجة العُليا، ما زال يَرمقها بعين الرجاء والأمل. غطَّت وجهها بكفَّيها وشعرت بأنفاسها دافئة بين كفَّيها وعينَيها، وأن داخلها عامر بسعادة غامرة، تعلم أنها ما تلبث أن تزول، لكنها السعادة. أدارت مُحرك السيارة، ومضت على الطريق.

***

«مختار» ابن عمّنا بدين ضخم الجثة، جمجمته ووجهه كبيران، أو هكذا كان يبدو لنا في طفولتنا. كفَّاه أيضًا غليظتان. يجلس ويقهقه بصوت عالٍ فتترجرج طيَّات لحمه كأنها تصوير لحركةِ صوته. كان يزورنا بانتظام بعد وفاة والدي كل يومِ جمعة لأننا أبناء عمّه اليتامى. يوم الزيارة نحوم حول الباب قبل موعد حضوره، فإن كنّا في الصالة فإننا نُرهف سَمعَنا لصوت الجرس، مُتأهّبين للهرولة في الردهة نحو الباب. يدقُّ الجرس. نجري ثلاثتُنا ونتدافع لنفتح له. يظلُّ عم مختار واقفًا في فتحة الباب حتى ينتهي من التربيت على رءوسنا. يدخل وبيده دائمًا إما كيس موز أو برتقال، علاوة على قِطَع الحلوى الصغيرة التي نعلم أنه يُخفيها في جيب جاكتته. تنهض أُمي واقفةً في الصالون لاستقباله. يضغط يدها بين كفَّيه ويسألها بصوت حذر كأنه يستجلي سرًّا: «أخباركم كويسة الحمد لله»؟ يجلس ونحن واقفون نتطلَّع إليه. كفوفنَا مفرودة على ركبتَيه إلى أن يدسَّ يدَه في جيب الجاكتة، يُخرج قطع الحلوى ويناول كلًّا مِنَّا واحدة. كنَّا نُناديه «عم مختار» ليس لأنه عمُّنا ولكن لِفارق السن، فقد كنتُ أنا في الثامنة وإخوتي أصغر منّي وهو رجل كبير. بعد توزيع الحلوى يتفنَّن عم مختار في إضحاكنا بالنّكات ويضحك لها قبلَ أن تنتهي. يشرب الشاي ويُلقي نظرةً على أُمي وهي منصرفة إلى شغل ترَيكو، ثم يُتحفنا بفوازير على قدّنا مثل: «يأتي من بعيد بالطبل والزغاريد، فما هو»؟ نُخمن ونتخبط في الإجابات ونسألَ أُمي فترفض التدخُّل، ونُوقِن بأننا فشلنا في الوصول إلى حلِّ الفزورة فنقول له: «غلب حمارنا». ويتضح أنه القطار. بعد وقت يقف عم مختار ويستأذن لينصرف. أُودّعه بالامتنان لأنه كان يُبهجنا في الجوّ القاتم الذي خيَّم بعد غياب والدي.

ذات مساء جاءنا حاملًا بطيخةً كبيرة أقسم أنها «حمراء مسكرة». جلس في الصالون وأُمي على مقعد في مواجهته. تَحلَّقْناه كالعادة، فخصَّني هذه المرة بكلامه: «تعال هنا يا يحيي». ألصقتُ بطَني بركبتَيه أتطلع إليه. للمرة الأولى يرسم عم مختار الجدية على ملامحه كأنه مُقدم على عمل خطير. نظر في عينيَّ مباشرة. شعرت برهبة فالتفتُّ إلى أمي. رأيتها تبتسِم فعدتُ بوجهي ناحيتَه. قطب وجهه. مدَّ ببطءٍ سبابته وإبهامه وقبض على طرف أنفي، وفي الصمت المشوب بحيرتي وتوتُّري فرك أنفي، فركةً خفيفة سريعة، مرةً ثم أخرى، تمهَّل لحظة ثم أنزل كفَّه إلى مستوى بصري وفتحها أمامي فرأيتُ في راحته ثلاث قطع معدنية من النقود تلمع بنور فضي! تعلقت عيناي براحته ولبثتُ مدهوشًا حتى أني لم أمدَّ أصابعي لألتقط القطع التي كانت تلمع. خطر لي أن النقود هبطت من أنفي أنا فسألته: «هل هي لي»؟ خبط بيده على كتفي وقال بصوته الغليظ: «لك يا بطل»، ودسَّ القطع النقدية في جيب قميصي العَلوي، لكنني كنت مبهوتًا من إمكانية تحقيق كل الأمنيات بفركة أنف. رجوته: «مرة أخرى يا عم مختار والنبي». جذبتني أُمي من ذيل قميصي إلى الخلف وصاحت: «خلاص. السّحر مرة واحدة بس. خلاص». نقلتُ بصري مصدومًا بينها وعم مختار وقلت: «وماذا سيُكلّفهَ القيام بذلك»؟ ابتهلتُ إليه من جديد: «مرة أخرى يا عمّ مختار». ابتسم ناهضًا: «يومَ الجمعة القادم». قلت: «طيب، علِّمني كيف أفعل ذلك، لكي لا أُتعبك في شيء»، قال وهو يضرب

ساق بنطلونه بيده: «حين تَصبح كبيرًا ستعرف كل شيء». اتّجه عم مختار إلى باب الشقة وأُمي تسير خلفه وهي تُردّد: «نورتنا».

لم أنم تلك الليلة. ظَللتُ أتقلب على السرير. لم أنعس. وكنت أتساءل بحيرة: لماذا استخسر عم مختار الكشف عن سِر اللمسة السحرية؟ الفلوس في كل الأحوال لم تكن من جيبه بل من أنفي أنا! ولو أنه أظهر لي السر لاقتنيتُ كل ما أحلم به، درَّاجة. قمصان. مضارب كرة. نظارة شمسية. وعندما تسرَّب نور الفجر إلى الحجرة سقطتُ مُرهقًا في النوم وسحابة تقطر مرارة على أحلامي.

طالبتُ عم مختار بعد ذلك، عدة مرات بإلحاح، أن يُمكنني من سِرِّ السّحر بلا جدوى. كان يبتسم ويقول: «قريبًا. قريبًا. ليس الآن»، لكنه اختفى من حياتنا تمامًا بَعد عدة أشهر. وكنَّا نسأل أُمي عنه فتكتفي بالقول إنه سافر. ولا تُضيف كلمةً أخرى. هكذا توارت فركة الأنف السحرية، وبدت بعيدة المنال، لكن نورَها لم يُفارق أحلامي. مرت شهور وحين فقدتُ الأمل تمامًا في ظهور عم مختار، رحتُ أسأل أُمي عن سِرِّ الفركة السحرية وأرجوها أن تكشفه لي، وكنت أُقسم لها أنني لن أسيء استخدام السر، ولنَ أكون مُبذرًا، فقط أحصل على الأشياء الضرورية. لكنها ذات ليلةٍ وقد ضجرت منّي قالت لي وهي تنظر في عيني مباشرة: «أي سحر؟ تلك كانت لعبة. كان عمُّك مختار يُخفي النقود في ظاهر كفّه فلا تراها، ثم يُسقطها في راحته ويظهرها لك. لستَ صغيرًا فافهم؛ لا يُوجَد سحر». لكنِّي كنتُ أستقبل حديثها بنفسٍ مسدودة مُوقنًا أنه السحر.

عدتُ ذات يوم من المدرسة وأردتُ أن أقلم أظافر يدي الطويلة بعد أن وبَّخَني المعلم، فسألت أُمي عن مَقصٍّ للأظافر. قالت لي: «في الكومدينو المجاور لسريري مقص صغير». قصدت حجرة نوم أمي. كان الشباك مواربًا وضوء المغرب يتسرَّب إلى الحجرة ضعيفًا ويرقد باهتًا على ملاءة سرير أمي. جلست على الأرض أمام الكوميدينو وفرشحت رجليَّ لأكون براحتي وأنا أُفتش عن المقص. دسستُ أصابعي في جوف الكومدينو أُحركها في أرضيتِهِ بحثًا عن المقص فكانت تصطدم بمظروف ورقي منتفخ. جذبتُه إلى الخارج. وضعتُه على حجري. فتحتُه في الضوء الباهت فإذا به مكتظٌّ بصور عائلية قديمة، من بينها صورة أمي وهي جالسة على كرسي وأبي واقف خلفها، وفجأة انزلقتً أمامي صورة عمّ مختار، لكنه كان مُختلفًا عما عرفته، كانت عيناه مفتوحتَين بقوة. ذراعه مرفوعة في الهواء. إبهامه يُلامس سبابته لمسةً خفيفة كأنه يفرك بينهما شيئًا ما، وبين إصبعَيه تجمَّد شلال يضوي بالنقود. رفعت عينيَّ حائرًا إلى عم مختار، فرأيته يستحثني بعينَيه بلهفةٍ وتصميم أن أغمس إصبعي في الشلال المتجمّد. استجمعتُ أحلامي ورفعتُ يدي بحذر وأمل نحو الشلال. مددتُ طرف إصبعي إليه. لمستُ الضوء الباهر الساكن، فتدفَّق الشلال منهمرًا على صدري وفي حجري، وطوَّقتْني حلقة من نورٍ مريح. دار رأسي من الفرح وأغمضتُ عينيَّ لأحفظ السرِّ في خيالي.

***

كل هذا الـوقـت؟!

تقدمتُ نحوك هذا الصباح وصافحتك. ذكرتك بنفسي مرة أخرى. مليتُ عيني منك في صمت بأمل أن تتَذكَّريني، لكنك رميتِني بنظرةٍ ما بيَن الاستنكار والاستفهام والتعجب، كأنما أذكرك بشَخص كنت تعرفينه غِبَّ وقت ما ونسيتِه، أو أنني ذكَّرتك بحدث طوت سيرتَه السنون من زمن. لَبثت واقفًا أعرض عليكً وجهي ثابتَ الملامح وأنتظر. واصلتً التطلع إلي، وفجأةً رقتْ عيناك بدهشة خفيفة كأنك تقولين: « ياه .. أهو أنت» ؟! لكن دهشَتك الرقيقة سرعان ما ذابت في حيرةٍ أشبه بالاعتذار والتأسف. لم تتذكَّريني، مع أنني لم أُحرك عضلة في وجهي ولم أرمش بعيني وأنا أعرض وجهي أمامك.

في المساء لبثتُ واقفًا قرب بيتك نحو ساعتَين إلى أن رأيتك تخرجين بمفردك. سرتُ خلفك أتبعك من على مسافةٍ قصيرة، أنصت إلى وقع قدمَيك على الإسفلت وأنت تَسيرين على مهل، تَمشينَ شاردةً كأنَّ وجودك صدًى صوت لا تذكرين أين سمعته. تقطعين الشارع إلى الناحية الأخرى. تتوقفين أمام واجهات المحلات. تضغطين بقبضة يدك على حقيبتك. هل أنت مستوحشة وغريبة ومُنهكة إلى حدّ البكاء؟ أم أنني أتخيَّل هذا؟ تُواصلين السير. تتمهَّلين عند كشك الزهور القائم في الميدان. تَتفحَّصين أصص الورد وما يطل منها، وأنا أراقبك من الرصيف المقابل. أراك ترفعين واحدًا لأعلى. تشمّين أعواد الورد. تفتحين حقيبتك، تدسّين يدك فيها وتخرجينها. تنقدين البائع ثمن الورد، ثَم تستديرين وتستأنفين السير في الشارَع الذي تحفُّه أشجار البونسياناَ الطويلة. تقدمتُ إليك. ذكرتك بنفسي مرةً أخرى. تاهَتْ نظراتك في وجهي لكنك هتفت: «آه .. بالطبع. بالطبع». لبثتُ واقفًا أُظهر لك وجهي ثابت الملامح وأنتظر. لكن صوتك سَرعان ما ذاب في النظرة الحائرة. سرتُ بجوارك، تكاد كتفي أن تُلامس كتفك، وتكاد أنفاسي أن تتلاشى في أنفاسك، ويكاد الماضي أن يُصبح حاضرًا.

بلغنا البيتَ الذي تسكنين. توقفت وتناولت الورد من يدي. حدقت بي بنظرةٍ لامعة كأن كل ما جرى وكل ما يجري أمرٌ مفهوَم، وبنفس النظرة اللامعة شددتَ على يدي تُودّعينني بحرارة، لكنك لم تتذكَّري ما مرَّ بروحي ولا بروحك، لم تتذكري شعوَرًا كان أرقَّ منَ مطر الليل.

الآن، وأنت وحدك في حجرتك، تخلعين قرطك من أُذنَيك، لا ترينني حتى وأنا جالس على مقعد صامتًا في مواجهتك. جالس أهمس باسمك وأهمس باسمي، وأتشبث بحافةِ ما كان من قبلاتً وأنفاس حارة. يكفي كل هذا النسيان لكي تتذكَّريني ولو مرة، ولو لحظة، لكي تنظري في عينيَّ وتهتفي كمن ضاع ثم وجدَ نفسه: «ياه .. أين كنتَ كل هذا الوقت»؟

***

بـــيـــاضـــة

تناول الكتاب من فرشةِ الكتب على الرصيف، وراح يتصفحه، لكنه ورقةً بعد أخرى لم يجد شيئًا. أغلقه وأعاد النظر إلى الغلاف فوجد عنوان الكتاب واسم المؤلف بخطّ أحمر واضح على خلفية سوداء. أعاد فتحه، صفحات بيضاء واحدة وراء الأخرى، خالية مَن أي حرف مطبوع! قال لنفسه: «لا بد أن عاملًا مسطولًا اختلط عليه الورق في المطبعة فخرجت هذه النسخة». انحنى على فرشة الكتب. تناول نسخةً أخرى. وجد صفحاتها هي الأخرى بيضاء تمامًا! نسخة ثالثة، نفس الشيء. تحيَّر، ولم يهتد لتفسير، ثم زادتْه الأيام اللاحقة دهشةً حين لاقى الكتاب اهتمامًا إعلاميًّا واسع النطاق؛ فلم تَخلُ مجلة أو صحيفة من مقال أو خبر عن الكتاب الذي جدَّد مفهوم الكتابة. ونوَّهَت البرامج الإذاعية والتلفزيونية بأهمية الكتاب وإن لم يتطرَّق أحد لموضوعه بشكل مُحدد، واكتفت الغالبية العُظمى بالإشارة إلى أنه شيق، وأنه يُعَد مفاجأة فنية وفكرية في عالَم السرد، تزلزل أركان الأدب التقليدي، حتى إن مذيعة برنامج «طقس اليوم» نصحت المشاهدين بعد أن نوَّهت بارتفاع درجات الحرارة بأن يقرءوا الكتاب لأنه على حدّ قولها «يمنح شعورًا لطيفًا بالرطوبة في الحر الخانق». توالت سلسلة من الندوات ساهَمَ فيها نَقَّاد كبار رافقهم، لسبب غير مُحدَّد، وكلاء وزارة الثقافة والمجلس القومي ومندوب جمعية «ساعد أديبك» الذي يجمع التبرُّعات في نهاية كل ندوة. راح يتابع أنباء ذلك النشاط المحموم، وهو يمعن النظر من حين لآخر إلى صورة المؤلّف وابتسامته المَحمية بطبقةٍ من الدهن اللامع. قال لنفسه: «لا يمكن أن يكون كل هذا الضَجيج من لا شيء». المشكلة أنه، مِثل أي إنسان، حين تُقرَع الطبول حوله فإنه يبدأ في التشكك؛ ليس في نظره فحسب بل وفي عقله، هكذا حدَّث نفسه بأنه لا بد أن يكون مخطئًا في أمرٍ ما أو أنه لا يفهم كما ينبغي، خاصة أن علاقته بالقراءة بدأت منذ مدةٍ قصيرة حين أُصيبَ بكسرٍ في الحوض ورقد في المستشفى فجاءه أحد الأصدقاء برواية. لذلك راح يتصفَّح الكتاب مرةً أخرى وهو يُخطِّئ نفسه. حدَّق بصفحاته البيضاء طويلًا وبتركيزٍ حتى دمعت عيناه، لكنه لم يجد أي شيءٍ ما عدا بياضة تعقبها بياضة حتى نهاية الكتاب. في مساء اليوم ذاته قرأ خبرًا أن مُخرجًا كبيرًا سيحول الكتاب إلى فيلم، إنتاج مشترك مع إيطاليا. حينذاك أحسَّ بالعجز والحيرة تجاه الكتابة الجديدة التي لم يفهمها، وما إن سمع بندوة سيحضرها المؤلّف وناقدان كبيران حتى اتجه بدون تردُّد إلى مقرّ الندوة المُعلَن عنه. كانت القاعة مزدحمةً بالجالسين وببعض الواقفين، وعند منصة المتحدثَين ارتفعت باقات الزهور، وترجرجت الابتسامات من بداية القاعة إلى آخرها. جلس بخشوع ورهبة متلهفًا بصدق للتكفير عن جهله. بعد قليلٍ افتتح د. صلاح حسين الندوة مُرحبًا بالحاضرين، ثم رفع الكتابَ الأبيض أمام أعين الجمهور والعدسات وقال: «لا شك أن كاتِبَنا العزيز أراد مُفاجأتنا بعمله البديع الذي خرج عن كلّ أطر السرد المعروفة. كتاب بلا كلمة واحدة، مجرد صفحات بيضاء. وبذلك سعى المؤلف باقتدارٍ إلى إشراك القارئ في عملية التخييل الإبداعي. تُرى أكان من الصعب عليه أن يكتب أو يؤلّف ما يعنُّ له كما عوَّدَتْنا الكتابة التقليدية؟ كلَّا، لم يكن ذلك عسيرًا، لكن الحداثة سَاقت مؤلّفَنا المبدع لإفساح المجال لخيال القارئ، بما يمنح الكتاب كل ذلك الثراء

والتنوُّع الأسلوبي بل والفكري، ولو أننا صادفنا، كما اعتَدْنا، كلمات مُعينة، مُحددة، مطبوعة، لظل القرَّاء أسرى تلك الكلمات، لكن أن نجد بين أيدينا بياضةً طويلة مستمرة، ومعذرة على كلمة بياضة العامية، فإن ذلك يعني أن بوسع كلٍّ منَّا أن يُدرج في الفراغ الأبيض كل خيالاته ومشاعره، فيصبح الكتاب في كل مرة، ومع كل قارئ، عملًا ابداعيًّا متفردًا، مُنفتحًا على تَشابُك المصير الذاتي بالمصير الكوني. الكتاب صيحة للتفكير على أُسس جديدة، لصياغة مفهوم مُعاصر وليس ماضويًّا لقضايانا المجتمعية بل والإنسانية عامة».

انفضَّت الندوة، وتحلَّق البعض حول المؤلّف ليُوقّع لهم على نُسخهم من الكتاب. وتوقف هو يتلكَّأ حائرًا يلوم نفسه: «كيف حكمتُ عَلى الكتَاب بسرعةٍ ولم أنتبه إلى المعاني العميقة التي أشار إليها الأساتذة النقَّاد؟ نعم .. البياضة؟ أليست رمزًا لما نحلم بَه في عصرنا؟ بل هي روح هذا العصر كما قال د. عبد اللطيف السيد». أرسل بصره إلى المنصة، كان المؤلّف جالسًا وقد أحاط به المعجبون، وتأسَّف أنه لم يأت معه بنسخته الشخصية. لبث في مكَانه دقائق ثم خرج، وخلال هبوطه على الدرج صادفه شَخصان يُدخّنان، كان أحدهما يضع على رأسه «كاسكيتة» كاروهات ، بينما تدلَّى من عنق الآخر إيشارَب طويل أصفر، وسمع وهو يهبط الأول يؤكد للثاني أن «الكتاب» قد تصدَّر أفضل المبيعات، وأنه كتاب خالد، سيُترجَم قريبًا من «بياضة» عربية إلى إسبانية، وإلى بياضة فرنسية وإنجليزية، ولا يُعطّل الترجمة الآن سوى الدقة التي يختار بها المؤلِّف المُترجِمين الأكفاء، لكي لا يتشوَّه فحوىَ العمل بترجمةٍ غير دقيقة.

***

لحظة حب

كانت الساعة ما تزال الرابعة والنصف، وحازم يمدُّ الخُطى من عند شادر السمك القديم إلى مطلع الكوبري، نحيفًا في بنطلون أزرق وقميص اهترأت ياقته. موعدُه مع شيرين في الخامسة، حين تقل حركة السيارات والمرور على الكوبري، حيث يُمكن أن يلتقيا من دون تكاليف بطاقات سينما أو مقهًى أو حتى حديقة. توقَّف ينفخ خدَّيه عند الرصيف الذي يجلسان على طرفه متلاصِقَين، يتبادلان ضغطات الأيدي وكلمات تهوم حول شيءٍ لا يُصرّحان به. أخيرًا لمحها مقبلةً وهي تُفتّش عنه بعينَيها. شاهدتْه فلوَّحَت له بكفها مُبتسمة.

أحَبَّها منذ عامَين وهو في السادسة عشَرة وهي أصغر منه بعام، من لحظة أن رآها تخرج من باب العمارة المقابلة في بلوزةٍ برتقالية وجونلة بنيَّة فاتحة. يومئذ توقفت وراحت تُدير بصرَها في ما حولها بنظرةٍ وديعة، كأنما تنتظِر الإذن من الأرض لتخطوَ عليها. ما إن شاهدها حتى غمرتْه بنفسها، كأنه يعرفها من طفولته، فلم يعُد به شيء ليس هي. وراحا يلتقِيان بعد الانصراف من المدرسة، ويتجوَّلان في المساء تحت أعمدة النور في الشوارع البعيدة، وذات مرةٍ وهما معًا كاد أخوها أن يضبطهما، لكنه لمحَه وهمس يُحذرها بسرعة، فواصلت السير بمُفردها تؤرجح حقيبةً صغيرة مُدلَّاة من كتفها، حتى لحقها أخوها، ومرت الحكاية بسلام.

ها هي شيرَين تتوقَّف أمامه. شعرُها مُرسَل في عقدة وراء رأسها. عيناها تبسمان له. انحنت وجلست على الرصيف. فردت ساقَيها أمامها على الإسفلت، ألقت نظرةً على وجهه النحيف، وعظام وجنتَيه البارزة بشحوب التلاميذ الذين لا يأكلون حتى الشبع، ثم ارتخت شفتاها نصف مفتوحتَين عن نصف أمل، وراحت تسرد عليه أخبار الامتحانات المقبلة. قال لها: «قريبًا نلتحق بالجامعة ونفعل ما نشاء». أطرقت لحظة. تخيَّلَت أنهما أنهيا الجامعة ويعملان ويحصلان على راتب فيلتقيان في كافيه. أخذت تتذكَّر كم مرة تواعَدا على الرصيف، طوت أصابع كفِّها اليُمنى الواحدة تلوَ الأخرى تحسب عدد المرات ثم همست: «خامس مرة نلتقي هنا». أمسَك بإصبعها الصُّغرى وألصقها بشفتَيه فأحسَّ حرارة الروح الحية، وارتجف بالرغبة في أن يعيشا ويموتا معًا، مثل حجرٍ لا ينقسِم. حلَّ صمت كأنه الحقيقة، ولم يتمالك نفسه. ضمَّ كتفَيها بقوة، وطبع على شفتَيها قبلةً اتقدت من أنفاسها. لم تستغرق القبلة سوى ثوانٍ معدودة، كالبرق، لكنها دوَّت في سماء القاهرة موضوعًا لا ينتهي في البرامج التلفزيونية والصحف وخُطب الدعاة في المساجد، بل وبين الرُّكاب في المواصلات. فقد تصادف أن رجلًا في عمارةٍ مُطلَّةٍ على الكوبري كان في شرفة شقته يُتابع اللقاء، عنَّ له تصوير القبلة فيديو ونشْرُه على وسائل التواصل. ووصلت القبلة إلى النيابة العامة حين تقدَّمَت إحدى المُحاميات ببلاغ ضد «شابَّيْن ظهَرَا في فيديو يُمارسان فعلًا مُنافيًا للآداب. مخالفًا لقِيَم المجتمع وتقاليده»، ثم تدخل قسم الشرطة، فدوَّت «الفضيحة» في كل مكان بعناوين صارخة؛ «الفسق والفجور في الطريق العام»، «فعل فاضح يهزُّ القاهرة»، «اعرف عقوبة الرذيلة»!

في اليوم التالي فوجئ حازم مذهولًا بشُرطِيَّين اثنَين يطرقان باب الشقة ويسوقانِهِ إلى القسم في سيارةٍ سوداء كانت تنتظر أمام المنزل، ولم تُصدِّق شيرين، وهم يَسحبونها من بين إخوتها،

ما يجري. انفجرت في بكاءٍ عصبي مخبولةَ وآخوها يَلحق بها ويهمس في آذنها: «لا تعودي إلى هنا مرةً أخرى». وقف الاثنان في قسم الشرطة أمام الضابط. شيرين ترتجف باكية وحازم نحيفًا مهتزًّا مُطرقًا سيطر عليه يقينٍ مُروِّع أن شيرين ضاعت منه للأبد، ولن يكون بوسعه أن يراها بعد ذلك.

مرَّ يومان على التحقيق معهما، امتلأت الصحف خلالهما بالأخبار تتابع الفضيحة، وتجمعت فوق الكوبري حلقات الفضوليّين والعابرين يُعاينون موقع الحدث وبينهم اندسَّ صِبْيان أصحاب غُرَز الحشيش تحت الكوبري يتحسَّسون الأخبار. احتشدوا وقد طوَّقتْهم من كل ناحيةٍ رائحة العفن المنبعثة من مقلب الزبالة تحت الكوبري. في واحدة من تلك الحلقات وقفت امرأة قصيرة بجلباب أسود تُلوّح بذراعَيها وتصرخ: «ما فعله الولد والبنت لا يمكن السكوت عليه»، ولمحت المرأة غير بعيدٍ عنها صحفيًّا شابًّا واقفًا وقد تدلَّت كاميرا من كتفه، فاندفعت نحوه، وكادت أن تسقط على وجهها عندما تعثَّرت قدمُها بشرخٍ في إسفلت الكوبري الذي قالوا منذ شهرينِ إنهم أنهوا صيانته بتكلفةٍ باهظة. توقفت المرأة أمام الصحفي الشابّ تهشُّ الناموس عن وجنتيها وتزعق: «فساد .. وساخة .. وإجرام».

بانقضاء شهرٍ على حكاية حازم وشيرين شغلت القاهرة أخبار جديدة، وهدأت مطاردة قبلة الحُب التي رفرفت على إسفلت الكوبري.

***

من الأول خالص يا أفندم؟ من الأول؟ حاضر. تمام أفندم. محمود حمزة يا أفندم. بس معروف باسم بلية من وأنا صغير، لأني قصير شوية. من غير كثرة كلام؟ حاضر. لا مؤاخذة يا أفندم. عمري 27 سنة. نقَّاش أدهن حيطان وأبواب. والدي صعيدي على قد حاله وصل القاهرة واشتغل بواب عمارة فأعطوه حجرةً صغيرة تحت السُّلَّم عشت فيها مع أُمّي ووالدي الله يرحمه. أنا على فكرة شَبَه والدي بس هو كان طويل شوية وصوته تخين لمَّا يتكلم. نعم؟ أخليني في الموضوع؟ أنا بأحكي من الأول خالص لأن سيادتك قلت لي من الأول. من بعد الأول بشوية؟ حاضر يا أفندم. لما مات والدي اشتغلت صبي مكوجي وعند حلاق، وأيامها عمي قال لي تعالى أعلمك صنعة تنفعك .. أنا آسف قوي .. حاضر من غير حكاية عمي؟ فهمت يا أفندم. سبب معرفتي بالطلبة الثلاثة السياسيين إني بعد الشغل أروح أقعد في قهوة «عنبر» طول الليل. بس يا أفندم حكاية القهوة مهمة .. لأن الطلبة جاءوني هناك. أيوه يا أفندم. وقالوا لي أبيِّض لهم الشقة. وأنا والله يا أفندم لا أعرف سياسة ولا إنهم سياسيين. لا يا أفندم لم تكن لي سابك (سابق) معرفة بهم، وأنا نقَّاش أرزقي من غير دكان، أي شغل أقبَله. أيوه يا أفندم. الثلاثة حسين ومؤنس وفؤاد. الخدمة العسكرية؟ لا يا أفندم أنا رحت للكشف لمَّا وصلني استدعاء للوطنية. وقفت في طابور طويل يا أفندم كله لا مؤاخذة فلاحين وصنايعية، وحضرة الضابط لمَحني في آخر الطابور فأشار لي بيده: «تعال هنا». رحت له ووقفت قُدَّامه فسألني: «أنت جاي تعمل إيه»؟ قلت له: «استدعاء الخدمة الوطنية»، فشتمني يا أفندم وقال لي: «وطنية إيه يا ابن العرص وأنت أقصر من ماسورة البندقية؟! خذ ورقة الإعفاء آهي واختفي من قُدَّامي، إيَّاك أشوفك هنا تاني». عندي إعفاء من الوطنية يا أفندم. من غير كثرة كلام؟ حاضر. فهمت. قلت لهم ماشي، أبيِّض الشقة. وكان في دماغي يا أفندم إني أطلع لي بقرشين، لأني كنت عاوز أتزوج بنت عمي، تخدم أمي لأن أمي ست كبيرة حركتها ضعيفة وتنسى تاخد الدواء. كبيرة يا أفندم. من غير حكاية أمي؟ أختصر يعني؟ فهمت يا أفندم. أيوه. رحت لهم شقتهم في شارع عزمي الدور الثالث. لاء يا أفندم، هم كانوا يتكلموا مع بعض، لكن أنا في شغلي لم أكن أسمع، ولمَّا كنت أستريح شوية وأشرب شاي معهم لم أكن أفهم بيقولوا إيه. كلامهم لا مؤاخذة يا أفندم غير كلامنا. بالضبط يا أفندم. كانوا يشتموا على طول بس أنا ما أعرفش الحكومة كانت ضمن الحاجات دي ولا لاء، لأن كل تفكيري كان في بنت عمي، أتزوجها وتخدم أمي لأنها ست كبيرة وضعيفة، لكن عمي رفض وقال لي أنا لا يمكن أزوجك بنتي، أنت واحد طول الليل في القهوة تضيع فلوسك على الطاولة والكوتشينة. لا يا أفندم والله ما كنت أعرف أنهم طلبة مظاهرات من الجامعة .. أنا في شغلي بس، وبسبب الشقة الشؤم قعدت عشرة أيام في قسم البوليس، ودلوقت بقى لي أكثر من سنة محبوس احتياطي وما زلت، لكن ليس لي سابك (سابق) معرفة بالطلبة، ولا تُوجَد علاكة (علاقة) معهم. أيوه يا أفندم. كلام سيادتك صح. كان يأتيهم أصحابهم بالليل ويقعدوا يتكلموا مع بعض. شباب. لاء يا أفندم لم يتكلموا معي. لكن مرة واحد منهم قال لي الحائط قدام التلفزيون لونه كريمي غامق يحتاج يبقى فاتح شوية. وسيادتك عارف إن صنعتنا تحب

المفهومية والأسطى منّنا لازم يعرف يخلط الألوان كويس؛ يعني الأحمر والأزرق يُعطي بنفسجي بدرجاته .. متأسف يا أفندم. باختصار؟ حاضر. بس أرجوك يعني سيادتك لما بتزعق أنا بأتلخبط يا أفندم. حاضر. أختصر؟ بس أنا يا أفندم فوق من سنة ما شفت أمي، عاوز أطمن عليها لو عاوزة حاجة. الورقة؟ الورقة دي يا أفندم؟ تمام أفندم. أيوه القلم قدامي. سيادتك تقول لي وأنا أكتب. تمام. «أعترف أنا محمود حمزة الموقع أدناه، بطاقة شخصية رقم ٩٥٠٢٢١٦ المُقيم بالمنزل رقم 4 عطفة الحمصاني بالسيدة زينب، بقيامي بكل الجرائم المنسوبة إليَّ من الاشتراك في المظاهرات والتعدي على الأملاك العامة والانضمام لجماعة إرهابية محظورة ونشر .. أشعات؟ كاذبة أيوه .. أيوه .. فهمت .. إشاعات.. فيها ألف يا أفندم .. إشاعات كاذبة. صح. إمضاء محمود حمزة.» كتبت يا أفندم كل ما قلته حضرتك. بس ممكن لو سمحت يا أفندم طلب؟ لا مؤاخذة .. لما أنا أطلع من الحبس والناس يسألوني عن سبب حبسي أقول لهم أنا عملت إيه؟ إيه اللي أنا عملته يا أفندم؟!

***

وقف على المحطة ينتظر الأتوبيس، الساعة حوالي الخامسة مساء. أغمض عينَيه وراح يفتح رئتيه على وسعهما يسحب الهواء عميقًا ويطرده. منذ خروجه إلى المعاش لم يعُد يُغادر البيت إلا نادرًا. على مشارف السبعين لم تعُد قواه تُسعفه على السير طويلًا، فأمسى ركوب الأتوبيس ذهابًا إلى وسط البلد وإيابًا نزهة بحدّ ذاتها. يركب وينزل عند نهاية الخط، يتمشى، فيغترف الحياة من الأصوات الضاجَّة وألوانَ الملابس والكلمات المُتطايرة، ثم يرجع إلى بيته.

لاح من بعيد ميني باص وتوقف أمامَه. مطَّ رقبته. جال ببصره داخل السيارة ليرى إن كان ثمَّة مقعد شاغر قرب نافذة. قبض على عمود الباب بكفّه وشد جسمه صاعدًا. ما إن تحرك الأتوبيس حتى أخذ الهواء المُنعش يهب على وجهه. سَرح ببصره في لافتات المحلات وومض اللون الأحمر بخلفية السيارات، وعندما ارتقى الأتوبيس الكوبري، غمرته مُتعة غريبة من النظر إلى البيوت من أعلى. تمهَّل الأتوبيس عند إشارة مرور فقفز إليه شاب ترنح ثم استعاد توازنه. دبَّت في صدره الهواجس: «أتراني أطفأت شعلة الموقد قبل أن أُغادر البيت»؟ قال لنفسه: «نعم أظن أطفأتها». كان نسيان كل شيءٍ مسئولية زوجته إلى أن تُوفّيت، فتعين عليه أن يعتمد على نفسه في نسيان كل ما كانت تنساه، إن كان موعد سداد فاتورة الكهرباء قد حلَّ أم فاته، وإن كان قد نام وترك التلفزيون شغالًا أم أغلقه، وما إلى ذلك. لاحظ ابنه حالته فدعاه للعيش معه لكنه لم يتحمَّل الإقامة عندهم لأكثر من أسبوع، فقد عاملته زوجة ابنه على أنه صبيٌّ لطيف كلَّما عمل بنصائحها نال قطعة حلوى مكافأةً له.

طاش وجدانه بين مئات الشذرات من الذكريات إلى أن لمح عن يَساره رصيف محل اصطفَّت عليه درَّاجات طويلة وقصيرة حُزمت عجلاتها بشرائط ملونة. من مكان بعيد قفزت إلى ذاكرته لحظة تمنَّى فيها أن يقتني دراجة. كان في الثامنة من عمره وخرج ذات يوم إلى الشارع، وشاهد الولد حسين يتأرجح فوق دراجة وعم صبحي أبوه يلهث قابضًا على مقعدها من الخلف يصيح: «بدّل. بدّل»، والولد يُصلصل بجرس صغير وقد توهَّجت ملامحه فرحًا. في تلك الليلة لم ينم، وَكلما أوشك على النعاس يفيق ويرى نفسه طائرًا بدراجة في الريح ويحسُّ بسخونة حرارة الأمل. لم تخفُت رغبته حتى بعد أن كبر والتحق بعملٍ في شركة، لكنه تردد: «موظف مُحترم على دراجة؟ لا .. لا يليق».

بلغ الأتوبيس نهاية الخط. نزل متأنّيًا. وقف في الشارع وهو يثني ركبتَيه ويفردهما عدة مرات. ارتقى الرصيف وبدأ يتمشَّى. أحَس الفرحة من الحركة حوله ومن الصياح والزحمة، ثم دبَّت في صدره الهواجس: «هل أطفأت نور الصالة؟» قفزت أمامه صورة درَّاجة أعجبتْه من رصيف المحل. ضحك في سره، وتذكر أنه حين خرج إلى المعاش قال لنفسه: «ألن يندهش الناس من رجلٍ مُسنٍّ على دراجة؟»

ظل نحو عشرين دقيقة يروح ويجيء في الشارع إلى أن شعر بالبرد فقال لنفسه: «يكفي. آن أوان الرجوع». مضى نحو المحطة يهمس لنفسه: «غدًا الإثنين، سأشتري الدرَّاجة التي رأيتها». هز رأسه بانتباهٍ قلق: «غدًا الأحد أم الإثنين؟ اليوم الأحد، إذن غدًا الإثنين «. قطع

الشارع إلى الجهة الأخرى ليركب عائدًا إلى بيته. اتسعت ضحكته في سره: «غدًا ستكون لديه تلك الطويلة العفيَّة، يقودها في الشارع، ويراه أصحاب محلات البقالة وعمالها، و» زينهم» في محل الحلاقة، وربما يخرج حسين من المخبز البلدي ملوحًا بانشراح: «ألف مبروك يا عم زكي». هل يعقل هذا؟ سيتقدم بها إلى الأمام، قد يرتبك في البداية خجلًا، لكنه سيتغلب على خجله ويتّجه إلى الميدان الواسع، بينما تتشقَّق من حوله جدران الطفولة عن أمنيات الماضي. سيواصل التقدُّم، يختلس النظر إلى المارة ليعرف ما الذي يُثير دهشتهم؟. يتقدم للأمام، يضرب البدَّال مرة بقدم الطفولة، بقوتها ونزقها، ومرة بقدم الشيخوخة بضعفها وتراخيها، لكنه سيتقدَّم، يقطع ما تبقى له من طريق، متأرجحًا ما بين زمنَين. غدًا . الإثنين؟ نعم.

***

لم نكن قد تحدثنا إلى بعض منذ ما يقرُب من ثلاثة شهور. صباح اليوم فوجئتُ برقمها، استقبلته بلهفةٍ وما إن قلت لها: «آلو» حتى هتفت: «صباح الفل. وحشتني جدًّا». قلت بحرارة: «أنت أيضا». كنَّا نشتاق بعضنا إلى بعض بحرارةٍ رغم انفصالنا منذ عامَين. لا أدري بالضبط ما الذي كان فينا يشتاق إلي ماذا فينا؟ لكن كانت تعبر بنا لحظات يعتصِر الحنين فيها الروح ثم يُفلتها. قالت بحيوية: «دعنا نلتقي اليوم في الخامسة عصرًا. ما رأيك»؟ أجبتُ على الفور: «بكل سرور. أين»؟ لم تُطِل التفكير: «فليكن في كافيه كوستا بالمهندسين». قلت: «اتفقنا. نشرب قهوة وندخن ثم نخرج ونأكل في مطعم». صاحت: «الله. يكون جميل قوي». كان ثمة خيط من التفاصيل والذكريات يربطنا، خيط رفيع له طبيعة خاصة، إن لمسته بأمل أن يكون أقوى انقطع، وإن حاذرتَ الاقتراب منه يظلُّ يهترئ ويتفتَّت على مهل في الزمن. تفاصيل جمعتنا، بعضها مُحبَّب إلى الذاكرة مثل قيامي في الصباح — عندما كنَّا معًا — لأجدها جالسةً إلى المنضدة تمضغ لقمةً ببطءٍ ولامبالاة مثل فرخ بطّ أو أرنب وبقايا النوم عالقة بملامحها كأنها في حلم لم تصحُ منه، أيضًا حين كنت ألمحها في منتصف حجرة النوم تنثني وتعلو بجذعها تشدُّ البنطلون لأعلى وتحشر أطراف البلوزة فيه. لا أدري ما الذي كان يُعجبني في ذلك المشهد. ولا بد أن شيئًا منّي بقي في ذاكرتها بوسعه أن يُحرّك فيها الحنين. إلا أن الذكريات اللطيفة، متناثرة أو مجتمعةً، مبهجة أو حميمية، كانت تتتابَعُ كلُّها في شبورة من ضجر. لم أجد تفسيرًا لاندلاع علاقتنا في مطلعها ولا تفسيرًا لخمودها بعد ذلك. هناك أسباب كثيرة لاشتعال القلوب وانطفائها، لكن ما جرى لنا بدا كأنما بلا سبب، كما أنه بلا سبب يتعاقب الربيع والخريف، إنه يحدث فحسب، وما من سبب ولا تفسير لانزلاق سحابةٍ بهدوء ثم زوالها برقة.

قررت قبل الموعد بساعتَين ألا أذهب. من أين انبعث هذا القرار؟ لا أدري. كان عليَّ أن أجد حجةً أقدّمها لصفاء أعتذر بها عن عدم حضوري. لن ينطلي عليها قولي أني شعرت بالإرهاق، ولو قلت لها جاءني اتصال مفاجئ بشأن عمل مُهم فلن تُصدقني. قلَّبتُ في رأسي مختلف الأعذار وانتهيتُ إلى أن أفضلها مرض خالتي التي تسكن بمفردها قريبًا مني. إذن سأتصل بها وأقول لها: «يا إلهي! أي سوء حظّ هذا؟ تصوَّري أن خالتي اتصلت بي قبلَ قليل، لأن قدمَها انزلقت في الحمام وانكسرت». ستُعلق هي مدهوشة: «ياه. سلامتها ألف سلامة». سأضيف: «للأسف حالتها صعبة جدًّا». ستتنهَّد قائلة: «يا حرام». سأَحْبُكُ القصة أكثر: «لا بد أن أذهب إليها لأصطحبها إلى أقرب مستشفى». سترِدُّ هي بنبرةِ مواساة أعرفها: «لا بد أنها تتألَّم بشدة». سأصيح بإعجاب: «سبحان الله. كأنك معنا وترين ما يحدث». ستقول: «نؤجل الموعد لا مشكلة». سأعتذر: «سامحيني. حقًّا غصب عنّي». بينما أنا أهمُّ بالاتصال بصفاء وجدتُها تسبقني وتتصل: «يا إلهي أي سوء حظّ هذا؟ تخَيَّلي كلمتني عمَّتي من دقائق وهي تبكي! وقعت في الحمام فانكسرت ذراعُها». علَّقتُ مدهوشًا: «ياه! سلامتها ألف سلامة». أضافت: «وضعُها سيئ جدًّا للأسف». تنهَّدتُ قائلًا: «مسكينة». قالت: «حجزت تاكسي وسأمرُّ عليها لآخُذها إلى طبيب». قلت بنبرة مواساة تعرفها هي: «لا بد أن الوجع شديد».

صاحت باعجاب: «سبحان الله. كأنك معنا وترى كل شيء». قلت لها: «نؤجل الموعد لا مشكلة». اعتذرت قائلة: «اغفر لي. غصب عنّي حقًّا». أنهَينا المكالمة.

انتصر ضجرنا من التفاصيل الصغيرة على شَوقِنا إلى تلك التفاصيل. لا أدري ما الذي كان فينا يُضجر ماذا فينا؟ لكن من يدري؟ ربما تحل لحظة يعلو فيها بداخلي الحنين إلى صوتها وإلى الكلمات التي تتكسَّر كالفزدق في فمها، لحظة تنجرف هي إلى ساعةٍ كانت تناديني وأنا سارح ببصري بعيدًا لا أسمعها. متى؟ وفقًا لأي قانون يرجع المُحبُّون إلى سيرتهم الأولى؟ أوَلم يكن الحُب أحيانًا نارًا متصلة وأحيانا أخرى لا يكون؟. لا أدري. كل ما بوسعنا القيام به الآن هو أن ننتظر، يومًا آخر، طقسًا آخر، سماءً أخرى. من يدري؟

***

تدوّي الصرخة منتصفَ كلِّ ليلة ، تُمزّع الفضاء باهتياج وحشي غريب كأن مائة رجل ينزفونَ معًا أوجاع آلاف السنين، تشقُّ القَضاء، أهرول إلى نافذة الصالة. أُخرج رأسي منها، أتلفَّت يمينًا ويسارًا لكن لا أرى أحدًا غير كلاب تعوي تفرّ من الصوت، وذيولها بين قوائمها إلى أسفل السيارات. ليلةً بعد الأخرى تنداح الصَيحة بعُمق وألم وقوة حتى أقضَّت مضجعي وأغمَّتْني فصرتُ أترقَّبُها عند النافذة ربما أصل إلى شيء. لمَحت الآن رجلًا قادمًا من مدخل الشارع يمشي ببطءٍ وكفَّاه مرفوعتان إلى السماء يضجّ بالصرخة الحارة، ثم اختفى ولم يظهر في اليومَين اللاحقَين. أطلَّ الليلة من جديد لكنَّه بدا لي سريع الحركة وأقل حجمًا من ذاك الذي رأيتُه في المرة الأولى. تابعتُه ببصري. انعطف يمينًا وتوارى، لكن صدى صرخته ظلَّ مُعلقًا في هواء شارعنا برهة. رقدتُ في حجرتي أُحدّق بالسقف وانثالت عليَّ أحزان قديمة غريبة من طفولتي، من شقاء والدي الصعيدي المُغترَب، وبؤسه، حتى أننا لم نكن نُطالبه بشيء، وكنا نعيش على عطايا الأقارب وعطفهم وملابس أولادهم.

صباح اليوم التالي أخذتُ أستفسِر في الشوارع المُحيطة عن ذلك الذي يصرخ كل ليلة. سمعتُ حكايات منها أنه فلاح اغتصبوا أرضه، وأنه شاب كان عنده كشك سجائر أزالوه لتوسعة الشارع، ثَم فوجئ بمحلٍ تجاري كبير مكان الكشك، وأكد لي آخر أن الحديث يدور عن محام كان معروفًا، اعتقلوه ثَلاثة أعوام وخرج بعدها ذاهِلًا، إذا فتحت معه أي موضوع حملق فيكَ سائلًا: «طيب .. وأين القانونَ الذي درسناه؟»، ثم قال أحد الجيران إن الذي يطوف الشوارع ليلًا عامل بسيط كان ابنُه مُتفوّقًا، وحين تقدم للالتحاق بالعمل في السلك الدبلوماسي رفضوه لأنه: «غير لائق اجتماعيًّا» فأصابت أبوه لوثة وجُن . سمعت حكايات كثيرة مختلفة حتى أيقنتُ أن هناك عشرات ممن يجوبون الشوارع صارخين، أو أن هناك شخصًا واحدًا بعشرات الوجوه والحكايات.

وقفت الليلة كعادتي عند النافذة أنفث دخان سيجارتي، أترقَّب صرخة الرجل وظهوره. تذكرتُ والدي في أيامِه الأخيرة وهو عاجز عن التعرُّف إلينا. لبثتُ واقفًا حتى ارتجَّ الهواء من الآهة العميقة، وظهر الرجل يتطوَّح بين ظلال الأشجار وأعمدة النور. هذه المرة كنتُ متأهبًا بكامل ملابسي لأتعقَّبَه ربما أستطيع أن أساعده. هبطتُ من شقتي بسرعة، ورأيتُه وأنا عند مدخل العمارة من ظهره. سرتُ خلفه من على مسافة. اخترق الشارع صارخًا ثم انعطف إلى زقاق ضيق، وهناك تمهل وراح يتطلَّع إلى شرفات البيوت الناعسة ثم واصل سيره إلى ميدان تتوسَّطه صينية. توقف يلتقط أنفاسه كأنه ينزف عذابًا، ثم دوَّت صيحتُه مُستجيرًا مُسترحمًا، ومشى إلى أن بلغ بيتًا مُهدمًا يُطوّقه حائط منخفض. وثب من فوق الحائط إلى الناحية الأخرى. أسرعتُ ووثبتُ خلفه. رأيتني في خربة مهجورة تعلو فيها الأشواك وتتجول القطط وتتراكم القمامة في جنباتها. جُلتُ بعيني يمينًا وشمالًا أُفتش عن الرجل فلم أره. تعجبت، أين يمكن أن يختفي؟. تململتُ في وقفتي فارتطمَتْ قدماي بجسم حديديّ بارز عن الأرض. هبطت ببصري لأسفل فرأيت شبكةً من قضبان صدئة مثل غطاء بالوعة. انحنيتُ وغرزتُ ركبتَيَّ في الأرض. رفعت الغطاء بيدي فبانت لي فتحة مُستديرة تتَّسع لنزول شخص.

أيُعقَل أنه يعيش في هذه الحفرة؟! قررت الهبوط إلى أسفل. بدأت أنزل وقدماي تتلمّسان سلَّمًا ضيقًا درجةً بعد الأخرى. وما إن توقفتُ عند الدرجة الأخيرة حتى هبَّ علي بقوة هواء مُشبع برطوبةٍ ثقيلة، وقبل أن تعتاد عيناي على العتمة هاجمتني حلقاتٌ من هاموش صغير، دفعتها بيدي وأنا أُحدق في ما حولي. كنت في قبو مُرتفع السقف يَسبَح في زرقةٍ كابيةً، وعلى مدّ الشوف تمايلَتْ غيرَ بعيد خفقات شموع بمداخل ورش نجارة وحدادة، وظلال أكواخ، وأشباح رجال ونساء تروح وتجيء مع ضرباتِ مَطارق وآلات العمل. لبثتُ مَبهوتًا لا أُصدِّق أن تحت الأرض حياةً كهذه، إلى أن راحت تتَّضح من غمرة الظلال طوابير من البشر تتقدَّم، تتجاور، وتتفرَّق، وتتَّسع، تقترب منّي وتتطلَّع إليَّ بوجوهٍ هامدة في ثبات مُرعب. أيُعقل أن يعيش تحت الإسفلت شعب بأكمله لا نعرف أننا ندوس عليه كل يوم؟ من بين الجموع برز طفلٌ صغير على جبهته طفحٌ جلدي وبيده شيء مثل لقمة خبز أو قطعة لحم، وقف أمامي وفتَّح فيَّ عينَيه بنظرةٍ غريبة مُشبعة بدفء وظلام وجذور عميقة. هالني ما حولي وقررتُ أن أعود إلى السطح. رفعتُ قدمي لأعلى درجةً بعد أخرى وأنا لا أحيد ببصري عن أكتاف ورءوس الطوابير الغارقة في العتمة الزرقاء. واصلت صعودي حتى شعرتُ من فوق بحركة هواء السطح النقي. جريتُ في الخربة إلى الحائط المُنخفض ووثبتُ فوقه إلى الجهة الأخرى، ورحتُ أتخطف الهواء ملهوفًا بفم مفتوح. كان الشارع ساعتها خاليًا من الحركة موحشًا، ترامت فيه العمارات في الصمت والظلال. لبثت دقيقة في مكاني لأستفيق من القلق والحيرة والخوف. أخيرًا استجمعتُ قوتي وبدأت أتحرك للأمام لأرجع إلى بيتي، لكنّي ما إن خطوتُ أولى خطواتي حتى راح إسفلت الشارع يتشقَّق تحت قدمي، ومن حولي، وكلما نقلتُ قدمي خطوة تشرخ الإسفلت أمامي وبرزت من فجواته قبضاتٌ ملوّحة وأفواه تصرخ وأنصاف وجوه وعيون منفعلة. ركضت مفزوعًا. عدوت كالمجنون حتى لم تعد ساقاي قادرتين على التفلُّت من الأيادي والحناجر والأظافر التي تناوَشَتْني بعُنف فانهرتُ على طرف رصيف معتمدًا بظهري على عمود نور. شعرت بدوار وبالكاد كنتُ أرى ما حولي، وعمَّ صمتٌ مُرعبٌ حولي، وتجمَّدتْ وجوه الشعب الذي خرج من تحت الإسفلت، ولم تصدُر عن أيّ منهم ارتجافة صغيرة، فقط راحوا يُواصلون النظر إليَّ بثبات يترقبون شيئًا ما بأمل، أو يأس، ولم أكن أعلم ما الذي يترقَّبونه، ولم أُدرك إن كانوا يُناشدونني البقاء معهم، أم أن يظلوا معي على سطح الأرض؟ وما لبثت السماءُ أن أمطرت، أمطرت بصمت وبرفق، كأنها تهمس للأرض، وتفتحت قطرات المياه الشفَّافة زهورًا بيضاء على الإسفلتِ الأسود، واستحكم ونحن في ذهول صمت عجيب، وتعلقت أبصارُنا بسلاسل من النور امتدَّت، وراحت تتجاوزنا، وتتراكم في تلال، ثم تنهض تُعاود سيرها، وقد فاحت في الأرض أنفاس الطفولة الأولى.

***

من الصعب أن تفهم بدقة السبب في الرغبة المفاجئة بالاتصال بشخص ما! ولا الدوافع التي تُولد تلك الرغبة التي كأنما تنشقُّ عنها السحب بغتة! يظل هناك شيء ما غامضًا في ظهور تلك الرغبة فجأة وبقوة. أقول ذلك لأنني قمتُ هذا الصباح مُنهكَ البدن، رأسي مُشتت، جلست بمفردي مدة طويلة، أشرب أقداح الشاي على مهلي واحدًا بعد الآخر وأنا أحملق في الفراغ، كأنما تمَّ إفراغي من كل ما بداخلي، وفجأة، نعم فجأة، شعرت أنني أودُّ الاتصال به لأسمع صوته وأُنصت إلى نبراته الأخوية، وما زلت بحاجةٍ إلى سماع صوته، لأطمئن به وبالذكريات، ولكي أجتاز هوة من الزمن باتساع الأبد.

ترددتُ أو تكاسلتُ ثم اتصلت. جاءني صوته الجهوري الطيب الواضح يُرحب بي مندهشا:

ـ أهـلللا .. أهلا .. أين أنت يا رجل؟ أين أنت؟!

ـ أنا هنا. تمام والحمد لله. اشتقتُ لسماع صوتك.

ـ فيك الخير. وحشتني والله. كل هذه المدة لا تسأل ولا تتصل؟

ـ حقك عليَّ. هل أقول لك إن الحياة تَلاهي؟ لكن أنت تعلم أن الدنيا تجرفنا إلى كلِّ ناحيةٍ إلى أن يَلطمَنا الزمن فجأة فنُفيق. طمئني على أحوالك؟

ـ أحوالي؟! الأرجح أنه لا جديد، أنا كما أنا. توقفتُ عن متابعة الأحداث والناس، وأكتفي بما عشتُه ورأيته، لكن عامةً بخير. وأنت؟

ـ ماشي الحال. فقط أشعر أنني كبرتُ وأن الزمن تسلَّل إلى عظامي، أسمع دبيب خطوهِ وإن كنتُ لا أراه. كبرت.

ضحك بقوة:

ـ يا رجل أنت لا تكبر ولا تشيخ. دع هذا الكلام لغيرك.

ـ تذكرتُك من يومَين. كنتُ في جلسة مع أصدقاءٍ وحكيتُ لهم كيف أنني كنت أنساق إلى نزواتك ونحن صغار. كيف سِرنا في الشارع ذات يوم حين لمحتَ أنت حلاقًا متربعًا على الرصيف بجلبابه وبجواره شفرة حلاقة وكسرة مرآةٍ وفوطة قذرة، استوقفك منظرُه فالتفتَ إليَّ قائلًا: ما رأيك لو نحلق شعرنا عنده؟

ضحك بقوة وظلَّت ضحكاته تتردَّد في حلقهِ طويلًا: كان يومًا أسودَ!

قلت: حماقة طفولة لا بأس بها. حلقنا شعرنا، وقبل أن نصل إلى البيت كانت قد برزت على جلد رأسَينا بثورٌ مُتقيّحة، وما إن رأتنا أمُّنا ولمحت البثور حتى توجَّهَت ببصرها إليك وصرخت فيك: يا مجرم. يا عديم الضمير. ماذا فعلتَ بأخيك الأصغر؟، ثم هرولتْ للداخل وعادت وراحت تدعك رأسَينا بقُطنٍ وليمون وأنت تختلس النظرات إليَّ من تحتٍ لتحت وتغمز بنظرةٍ مُبتسمة.

قهقهة بقوة: يا الله كانت أيام! ثم يومَ سرقنا مفتاح سيارة الوالد من جيبه وهو نائم؟

ضحكت: مأساة الحلاقة كانت آهون! ليلتَها قَدّنا السيارة ولم نكن نعرف أي شيءٍ عن السواقة! رُحنا نتذكَّر ما الذي يفعله والدُنا لقيادة السيارة ونُقلده! دخلنا بها في نفقٍ عكس الاتجاه وخرجْنا منه فصدَمْنا حمارًا مربوطًا إلى سور!

لزمنا الصمت لكي لا يخدش الكلام اللحظة التي عُدنا فيها صغارًا.

تنهَّد قائلًا: أيام جميلة. خليني أشوفك.

قلت: اتفقنا. أنت وحشني فعلًا. سآتي إليك.

قال: متى؟

قلت: يوم الثلاثاء بعد غد، حوالي الثانية ظهرًا.

قال: جميل. سعيد أنك اتصلت. حقيقي.

اتجهتُ لزيارته بعد يومَين. أخذتُ معي باقة زهور. كان يُقيم في نهاية شارع صاعد لأعلى ولم يُسفلَت. أرهقني السَّير على الرمال والحصى الصغير حتى تلاحقَتْ أنفاسي. أخيرًا وصلت. وقفت أتم لَّى ا سمه الم كتوب بح روفٍ با رزة، و باقة ا لزهر مُدلَّا ة من يدي ، ثم انح نيتُ ووضعتها.

***

أقلق في الفجر، ذلك أن النوم يضطرب في مثل سني. أفتح عيني. أسمع صوت طرف قدمي وهي تُزيح الغطاء وترفعه، صوتاً خافتاً كأنه تنهُّد. أنهض. أتخبَّط في طريقي إلى الحمَّام وأسمع وقع خطواتي في فراغ البيت وسكونه. أُنصت إلى خرير المياه من صنبور الماء بينما أغسل وجهي. أمضي إلى المطبخ. أقف أمام البوتجاز مُصغياً إلى هسيس الماء في الإبريق على النار. أسير إلى صالة البيت حاملاً قدح الشاي في يدي. أجلس وحدي إلى المنضدة. لا يكسر الصمتَ سوى رنين الملعقة بين جنبات القدح الزجاجي. أتطلَّع إلى الفراغ أتسمَّع صوت الذكريات. لم تعد لديَّ أحلام، وحدها الذكريات.

في الساعة الثامنة تقريباً تطفو من الشارع سحابة أصوات. زقزقة أطفال صغار لا أراهم، لكنني أعلم أنهم يتجمَّعون الآن في حلقات أمام بوابة المدرسة قرب بيتي. تسبح الزقزقة المُتكسِّرة عبر نافذة الصالة نحوي. تحوم حوَل رأسي بخفة، تقطر إلى قرارة شعوري. صغار في أوائلَ العمر، يزعقون، يقذف بعضهم بعضاً بحقائبهم الصغيرة، يُهرولون، يشدُّ الأولاد البنات من شعورهن، فتطاردهن البنات بالحجارة صارخات، ضاحكات. فرحة بيضاء، سرور عارم في صميم اللَّحم والعظام بأنهم أحياء، وهم الآن يَختبرون وجودهم الحي، يلمسونه بالوَثب والصياح. أتخيَّلُهم داخل الفصول، يتظاهرون بالانصات والاهتمام بما يُقال، أتخيَّلُهُم، في ما بعدُ، أطباءَ ومهندسين ومُحامين، فيغمرني تفاؤلٌ برقة الورد يحتضن ما ذبل من الذكريات والسنوات، وأشواق مبعثرة مُرتجفة الأطراف تقاوم لكي تبقى حية. يخطر لي أن الحياة لا تشتعل ولا تفرح إلا بحضور المرأة، عندما تكون مُحبًّا ومحبوباً، لكنك لا تدري متي يكون ذلك، مثلما لا تدري متى يهطل المطر، اليوم أم غداً؟ في الفجر وأنت نائم أم بالنهار، فلا يبقى لك إلا شمس وحدة حارقة، وقمر بارد من وحشة رصينة. أعتصر حياتي في قبضتي مثل نواةٍ صغيرة، فلا ينزُّ مغزاها، ولا تسيل بالمعنى، تبقى نواة صلبة تحتاج إلى تفسير.

في العصر أقعد أمام التلفزيون، أتلفَّت من وقت لآخر إلى هاتفي، لا أحد يتصل. لا أحد يدقُّ جرس الباب. وشيئاً فشيئاً تعتم الصالة من الغروب الهادئ. أُعِدُّ لقمةً لنفسي وآكل كأنني أؤدّي واجباً نحو الحياة. وما إن أفرغ من الطعام حتى يتناهى إليَّ عويل الكلاب التي تتجمَّع أسفلَ البيت، تقف، رءوسها مرفوعة، ذيولها عالية، نظراتها إلى الأمام، تستمدُّ الشعور بقوتها من وحدتها، ثم تعوي معاً بتوسُّل يائس وغضب مُرّ حانق، بعد أن جاعت المدينة فخلت أكياس القمامة من بقايا الطعام واللحوم، فلم أعد أسمع سوى نشيد الجوع يخترق أُذُني هابطاً قرارة شعوري مستقرًّا بشعور قاتم. أنهض من مقعدي، قلقاً، حائراً، لا أجد لنفسي مكاناً. أروح وأجيء في الصالة. لا أدري ماذا أفعل في ذلك النشيد الوحشي المُهتاج. أرقد في نهاية يومي، مُحاصراً بين اليأس والأمل، وما بين زقزقة الصباح وعواء المساء المِلِم عُزلتي في وحدتي. أحاول أن أنعس، أن أسمع ولو في الحلم صوتاً آخر، فأُكلّمه طويلاً، أبوح له بكل ما في نفسي إلى أن تعرف روحي السكينة فأنام بعُمقٍ لا يقضُّ مَضجَعي يأسٌ من عتمةٍ أو أملٍ في الفجر.

***

انتقلنا إلى عمارة من أربعة طوابق بمدينة العبور، كنا أول من سكن فيها. بعد شهرَين ظهر الباش مهندس بكري والحاج عبد العزيز، ثم جاء بقية السكان واحدًا بعد واحد بسيارات نقل الأثاث والأطفال والحقائب. خلال عام لم تعُد في العمارة شقة شاغرة، وأُخذت رائحة الصلصة وزيت القلي تتسرَّب من نوافذ المطابخ إلى فسحات السلالِم. خلال ذلك نشأت بينَنا علاقات المودَّة بالقدْر الذي تقتضِيه الجيرة. أَلِفنا ملامح ونظرات بعضنا البعض ما عدا عزَّت الذي ظلَّ عصيًّا على المُصاحبة، بعينِه التي ترمش حين يُحدثك كأنه لا يراك، ووجهه الشارد الذي لا يُعبِّر عن شيء. حينذاك لم تكُن منطقتُنا السكنية قد استكملت بعد بناء المرافق، فاتفق سكانَ العمارة على تشكيل اتحاد ملَّاك لنتولَّى بأنفسنا تكملةَ ما يعوزنا. كنَّا نلتقي كلَّ يوم جمعة في شقة الباش مهندس بكري، نستعرِض إجراءات التقديم على عداد مياهٍ مُشترك وتعليق لامبات في أسقف السلم المُعتم ثم تركيب باب حديدي حمايةً لمدخل العمارة. كان عزَّت يحضر معنا لكنه يظلُّ صامتًا معظم الوقت، أو يغمغم من وقت لآخر بشيءٍ غير مفهوم، سارحًا في الفراغ بنظرةٍ خاوية حتى بدا كأنه مبعوث الضجر الكوني إلى الأرض. خارج لقاءات اتحاد الملاك لم نكن نراه تقريبًا إلَّا في ما ندر، إما على الدرج أو حينما يفتح باب شقته لسبب طارئ، فيُطل برأسه من بين فتحة الباب وإطاره، يُحدّق بالطارق بحذَر وتوجُّس مثل دجاجةٍ تتأهَّب لمواجهة الخطر، وأخيرًا يهمس بتوسُّل: «خَير»؟ ولم نرَ زوجته الست صباح إلا مرة عند سفرها لأمها في الزقازيق بمناسبة عيد الأضحى، حينما شاهدنا سيارةً تتوقَّف أمام العمارة وعزَّت واقف يرفع إلى سطحها باحتراس حقيبتَين مربوطتَين بحبل غليظ، وما لبثت الست صباح أن أطلت تتهادى من مدخل العمارةً وعلى شفتَيها التقطيبة التي تنمُّ عن قرف عميق، وفي ذيلها مشت ابنتُها وعيناها منكَّسة في الأرض مثل ذبابةٍ ضربها أحدهم بمنشةً لكنَّه أخطأها فبقيت دائخة. ورغم أن عزَّت كان محصنًا ضد التواصُل بالسأم والشرود، إلا أنه لم يُقلق راحة أحد من السكان قط ، ولا أزعجَنا من شقته يومًا بموسيقا صاخبة أو زعيق في شجار، أما أنه شخص مُمل، تسبَحُ حول رأسه وفوق كتفَيه سُحب السأم، فتلك طبيعة لا تُمثل إهانةً أو انتقاصًا من قدْر أحد، ومن ثم لا يمكن أن نلومَه عليها، حتى ونحن جالسين معه وهو يَسُوقنا بوجوده المُوحش إلى التأمُّل في أن مصير كل شيءٍ إلى زوال وأن الحياة وهْم وكل من عليها فان. وبانقضاء عامٍ كامل لم يعد عزَّت يرِدُ على بالِنا كأنما كان اللاوعي عندنا يحمينا منه بنسيانِه.

لم يجدَّ جديدٌ حتى يوم الأربعاء الماضي حين صاح ابني من عند النافذة يُناديني: «بابا .. تعال .. بص». نهضت مُتجهًا إليه. أخرجتُ رأسي من النافذة فشاهدت سيارة إسعاف أسفل البيت وعزَّت يتأرجح بين أذرُع اثنَين من عمَّال الإسعاف نحو باب السيارة المفتوح ومعه الست صباح. انطلقت السيارة تشق الشارع وتبتعد وقد شعرتُ بالقلقِ على عزَّت. ما له يا ترى؟ في المساء هبطتُ أطرُق باب شقته. فتحت الست صباح وحدجَتْني بوجهٍ مُمتعض. استفسرتُ منها: «شُفْنا سيارة إسعاف. خير؟ الأستاذ عزَّت ماله»؟ قالت: «كورونا». قالتها وهي تنطق كل حرف بحرص كأنها تلفظ جواهر. حلَّ عليَّ الذهول. كان ذلك آخِر ما يمكن

آن يخطر لي. في حينِه كانت الجائحة في شهورها الأولى ولم نكن نعلَم عنها شيئًا سوى ما يتردَّد من أقاويل مُتضاربة مُلتبسة وغير دقيقة. عاد عزَّت بعد شهرٍ ونصف إلى بيته، وقرَّرنا من باب الواجب أن نقوم بزيارته. هبطنا إليه ومعنا صينية بسبوسة وكنَافة. كانت تلك المرة الأولى التي أدخل فيها بيته. كان الجو في الصالة مكتومًا، وستائر النوافذ مُسدَلة حتى نهايتها، وفي مساند المقاعد وقوائم المناضد صمتٌ قديم. بعد قليل أطلَّ عزت علينا من ممرٍّ مفتوح على الحجرات الداخلية. بدا أشدَّ نحافةً ممَّا عرفتُه وعيناه منتفِختَين حمراوَين قليلًا. بعد عبارات التهنئة بالشفاء قال عزَّت وهو يهزُّ رأسه: «الحمد لله شُفيتُ منها». أردف: «لكنه مرض مُنهك، يستوجب من الجميع الحذر واتّباع إجراءات الوقاية». سألته عن أعراض الوباء وما أحسَّ به فشدَّ كتفَيه لأعلى ورفع رأسه يُوَضِّح لنا أنَّ كورونا تبدأ بسخونة سرعان ما ترتفع في اليوم التالي ويَعقبها شعور بأنَّ جسم المرَء يتحطم. واصل عزَّت حديثَه حتى بلغ أسماء الأدوية وجرعاتها ومواعيدها، وخلال ذلك لفت نظري ابتسامةٌ خفيفة على وجهه لم أشهدها من قبل، كانت تلوح وتهرب مثل شبَح يتراجَع أمام الضوء. قلت لنفسي «فرحة الشفاء».

انقضى شهران بعد خروج عزَّت من المستشفى فتيقَّن الجميع أن الخطر قد زال وأنه شُفي تمامًا. اطمأن سكان العمارات المجاورة وراح بعضهم يزوره ليستفسر منه عن كورونا وطرق الوقاية. يومًا بعد يوم كان عزت يستقبل الزوار بنشاط، ويتحدَّث إليهم، وهو ينفض دهون الإملال عن حباله الصوتيَّة شارحًا، موضحًا وهو يلوّح للجميع بيديه وعلى ملامحه ومضُ سعادةٍ طارئة. أخيرًا لاحظنا أنه أخذ يُراعي اتّساق ألوَان قمصانِه مع ألوان البنطلونات، أما حذاؤه الذي لم يرتوِ سابقًا من صبغةٍ فأصبح يلَمع ويبرق في قدمَيه وهو يسير مشدودَ القامةِ مثل شابّ في العشرين.

أول أمس وأنا راجع من عملي التقيتُ بعزَّت عند مدخل الشارع. خلال سيرنا تقدَّم نحوه شابٌّ كان يقف عند ناصيةٍ مع أصدقاء وسأله بأدب: «العفو .. حضرتك أستاذ عزت الذي .. الذي؟» تنهَّد عزَّت بحنان، ولم يتعجَّل عزت الرد، وأرسل للأمام نظرة الإنسان الذي يرتضي ويستعذب المقدور والمكتوب ثم قال: «نعم. أنا، وبالنسبة لكورونا فإنها .. وبعد أيام تشعر بأن .. ثم .. أما الدواء ..» وانهمك في الكلام فاستأذنتُ لأُواصل سيري وقد لمع في ذهني أنَّ عزت أصبح نجمًا في المنطقة.

بعد وقت انتشرت المعلومات عن كورونا بغزارة، وكان الاهتمام بعزت يتقلَّص كلَّما شاعت الحقَائق، إلى أن عاد كما كان، لا يكاد أحد أن يلحظَه حتى انتبَهَ عزَّت إلى ذلك التغيُّر فبدأ يستوقف من يُصادفه منَّا أو من سكان العمارات الأخرى معاتبًا: «يا أخي الناس لبعضها .. وبالمناسبة أنا قرأت مؤخرًا أن فيروس كورونا فيروس متحول .. إذن .. من يدري؟ يجوز جدًّا أنَّني قد أُصاب به ثانية»! في الأغلب الأعم لم يكن حديثه هذا يَلقى اهتمامًا يُذكَر، وحينذاك يؤكد عزت بنفاد صبر: «يا جماعة كورونا ليست مرة وتنتهي .. لاء .. أبدًا.. العملية أكبر من ذلك». لكن تلويحه بأنه عرضة للمرض من جديد لم يؤت ثماره، وقد لقيتُه مرة على درج العمارة، وما إن شاهدني حتى استند بيده إلى حائط السلالَم وأغمض عينَيه كأنما من التألُّم وهمس لي: «احتمال أنني أُصبتُ بكورونا مرة أخرى» ؟ إلا أن حِيَل

التمارُض تلك لم تنفعه بشيءٍ خاصةَ بعد أن آخبر الأستاذ مصطفى بقية السكان أنه يلمح عزَّت عند محطة الأتوبيس يوميًّا ويراه وهو يثِب إلى داخل السيارة بقوة حصان سَبَق.

غابت السعادة التي تألَّقَت وشعَّت في عينَي عزت. رجع إلى سحنته الأولَى، أو رجعت سحنتُه إليه، وفاض من جديد بقُدرتِهِ المُذهلة على إشاعة الضجر، وأخذ كسابق عهده ينزل إلى الشارع بالبيجاما، ويمشي بالصحن لشراء الفول شاردًا مُحدّقًا بالفراغ، بينما كانت الست صباح تمدُّ أصابعها إلى أعماقها كل يوم، وتتحسَّس سعادتها بأَنَّ أحدًا لن يُنازعها في عزت، مضجرًا، تمامًا كما أحبَّتْه، لا يُثير اهتمام أحد، تمامًا كما تزوجتْه، غير مَرئيٍّ تقريبًا، تمامًا كما عاشت معه.

***

كانت حوالي التاسعة مساءً حين غادرا نادي السينما. سارا على الرصيف يشقَّان موج البشر بيَدَين مُتشابكتَين. أدرك مازن من طأطأة رأس مها، ومن صمتها ووجنتَيها المُشتعلتَين أنها منفعلة. أرْجَحَ كفَّها عاليًا في الهواء. مال بعنقِهِ ناحيتها: «ما بك»؟ غمغمت: «ما زلت تحت تأثير قصة الحبّ في الفيلم. قصة جميلة فعلًا». التفتت إليه. شدَّت على أصابعه بقوة: «أتمنَّى لو نبقى معًا حتىَ النهاية، وأن تكون أنفاسك في أنفاسي حين أُودّع الدنيا، معي حتى آخر لحظة». شعَّ نور من نظرتها داخلَه. تساءل: «كيف يضيع الإنسان ويتلاشى من نظرة»؟ ابتسم: «ما زال وداع الدنيا بعيدًا فليس لدَينا حتى الآن لا شقة ولا سرير نودّع العالَم من عليه»! ضحكت: «سيكون لدَينا كل شيء. أنت الحمد لله عثرت على عمل وأنا لم يبقَ أمامي سوى عامَين أُنهي الجامعة وأشتغل فأساعدك». توسَّلَت بعينَيها: «المُهم ألا يُفرّقنا شيء». حولت نظرتَها إلى يسارها وتوقفت. قطعت خطوات نحو محلّ لوازم مكتبية. دخلتَ وخرجت بعد دقائق وبيدها دفتر ملاحظات صغير أزرق. تساءل ضاحكًا: «ما هذا»؟ هزَّت الدفتر في الهواء: «سأقومَ بتسجيل قصة حُبنا يومًا بعد يوم كما قامت البطلة في الفيلم، فإذاَ صِرتُ أنا عجوزًا وفقدت ذاكرتي تجلس أنت بجواري تقرأ لي حكاياتنا فأتذكر كلَّ شيءٍ ويخفق قلبي بحبك». فرك أنفَه في رأسها يتنشق عطرها: «الجميلات يَذكُرْن كل شيء». تناثرت سعادتها مُتألّقة في زجاج المحلات وفي هبَّات الهواء وبرقت حتى على الأرض.

بلَغا ميدان رمسيس. توقَّفا عند تجمُّع الميكروباصات. أقبلت سيارة يُنادي سائقها «عباسية .. عباسية». تراجع ووضع يدَه تحت كوعها لتصعد إلى الدرجة، ثم صعد خلفها. توجَّها إلى الكنبة الأخيرة. أجلسها قرب النافذة الجانبية وقعد بجوارها. همست له: «شكرًا على السهرة الحلوة. جميل لو سمح لنا والدي بالخروج معًا أكثر وأكثر». قال: «خطيبان ومع ذلك يَشدّدُون الخناق علينا». تمتمت: «لكن أنت الرجل .. يُمكنك أن تحتج، أن تطالب بحقّنا في اَلسهر والخروج، أما أنا .. فتاة». ضحكت بخفوت: «عندما نتزوَّج سنُشدّد الرقابة علَى أولادنا انتقامًا ممَّا فعله الآباء بنا»! ضحكا. قال: «على فكرة أنا سألت عن الشَقق في مدينة العبور، المُقدَّم ليس ضخمًا والأقساط الشهرية معقولة». قالت: «تعتقد نقدر»؟ شدَّ رقبتَه لأعلى وأجاب بثقة: «ومَن سوانا»؟ أضاف: أفكر في أن نُثبت على باب الشقة لافتةً نحاسية «هنا يسكن الأُستاذ مازن وقمرُه». زغدَتْه بقَبْضتها بتودُّد ضاحكة: «قمر مرة واحدة»؟ أكَّد لها: «قمر ونص وثلاثة أرباع». هبطت ببصَرها إلى كفَّيْها تتأمَّل دفتر الملاحظات الأزرق بينهما.

مضت السيارة بركَّابها سارحين في خواطرهم تحت ضوء اللامبة الضعيفة المُثبتة في سقف الصالون. لم يخرق الصمت سَوى قرقعة حديد السيارة وكلمات كان السائق في الكابينة يُلقي بها إلى شرطيّ بجواره. التصقت مها بمازن، غمغمت: «قريبًا نصل وتنتهي السهرة الجميلة». زعق السائق فُجأةً بنبرة متوترة: «ارحمنا يا أرحم الراحمين». تطلَّع كلٌّ منهما إلى الآخر بنظرةٍ مستفسِرة. عوج السائق رقبتَه إلى الخلف وزفر: «يا رب أكرمنا بالحلال. بالحلال بس»، وعاود الصياح: «رحمتك يا رب. النجاسة تقطع الرزق». هَدأ السائق من سرعته. ركن

السيارة على جنب. فتح باب الكابينة وهبط منها. سار بمُحاذاة جانب السيارة حتى وصل إلى النافذة الجانبية عند مقعد مها . مسح الزجاج بدوائر من كمّ قميصه. حدَّق بها لحظةً فارتدَّت إلى الخلف. رجع ببطءٍ إلى الكابينة وانطلق بسرعة مجنونة. وسرعان ما راح يدقُّ بقبضته مِقود السيارة زاعقًا: «لقمتنا بالحلال. بالحلال بس، لكن نجاسة لاء». اعتصرت مها الدفتر الصغير بقلق وسألت مازن: «لماذا يصرخ»؟ مطّ مازن شفتَه السُّفلى متحيرًا. لزم الاثنان الصمت تحتَ عباءةٍ من التوتر والقلق. انفجر السائق وهو يشير إلى مازن بسبابته: «أنت يا أستاذ. نعم أنت. أقول لك إذا دخلت النجاسة سيارة خرجت منها البركة. كفاية ما فعلتماه حتى الآن». ارتجَّت مها من كلمة نجاسة. ردَّ عليه مازن من مقعده مدهوشًا: «وما الذي فعلناه؟ هذه خطيبتي». داس السائق مكابح السيارة بقوة، فارتج الركاب في مقاعدهم. هبط. فتح باب صالون الركاب. زعق في مازن: «انزل من عندك يا أستاذ. تعال اركب بجواري، أما صاحبتك فتبقى في مكانها». نهض مازن واقفا، واصطدمت رأسه بسقف السيارة. هتف في السائق: «ماذا جرى»؟ دقَّ السائق صاج الباب المفتوح: «أتظن أنَّني أعمى؟ هناك أماكن أخرى لمثل هذه الأشياء يا مُحترم. انزل اقعد بجواري». جالت مها ببصرها على رءوس الركاب أمامها كأنما تستنجد بهم. لكن الصمت خيَّم فوق الجميع، ما عدا شخصًا كان نائمًا ورأسه على ذراعَيه فوق مسنَد أمامه، فقد رفع رأسه وتمتم: «السوَّاق عنده حق». تحرك مازن ليهبط. جذبته مها من يده تَرجوه: «لا تهبط. نحن لم نفعل شيئًا معيبًا». همس بصوت خافت: « هؤلاء السواقون بلطجية». ملص ذراعَه من يدها. نزل. مشى خلف السواق إلى الكابينة، وهناك جلس محشورًا بين السائق والشرطي الذَي قال له بصوت خفيض: «كان الأصح تقعد هنا من الأول».

توقف الميكروباص في غمرة. هبط مازن وهرول إلى صالون الركاب. ظهرت مها. مدَّ إليها يده. نترت كفَّه بعصبيةٍ ونزلت معتمدةً على نفسها. اندفع الميكروباص على الطريق مخلفًا وراءه حلقات من الدخان الأسود. وقف مازن ومها على الرصيف صامتَين. راحت تتطلَّع إليه كأنما تتعرَّف إلى شخص آخر لأول مرة، أو أنه يتعرف إليها الآن فقط. هبَّت عليهما نسمات باردة وهي تُحدّق به وتسأله: «أتفهم ما جرى منذ قليل؟ أتفهم»؟ خفض بصره. رمقته بألَم، وقالت بأنفاسٍ متقطعة : «أتفهم ؟ جعلونا نجاسة ! والآن سيبقى الخجل مما جرى حاجزًا بيننا». الْتوى فَمُها تكاد تبكي: «وكلما تطلَّعنا إلى بعض سنخفض بصرَنا ونحن نتذكَّر ما كنَّا عليه وما صِرنا إليه. أتفهم»؟ كان يشعر بجُرحها، لكنه لَم يجد ما يقوله، فتطلع إليها برجاء. كوَّرَت مها الدفتر الصغير في قبضتها بقوةٍ عصبية. تنهَّدت وهي ترفع أصابعها عنه. ألقت على مازن نظرة أخيرة كالوداع وأولَتْه ظهرها، ومضت تقطع الطريق إلى الجهة الأخرى من دون أن تلتفتَ خلفها . توارت في العتمة بين المباني ، اختفت ، أما هو فلبث واقفًا مكانه يُحدق بالفراغ الأسود المُشبع بمطر خفيف.

***

كان الجو حارًّا جدًّا، وبدا كأن الشمس في هذه الظهيرة قد تركت أعمالها في القارات السبع والمحيطات الخمس وتفرغت له، تُفلّي رأسه بأصابعها النارية، في وقفتِه في الشارع، أعزل، بقميص وبنطلون، وفي جيبه الخلفي معاشُه الذي استلمَه للتو. أقبل ميكروباص وتوقف. لم يرَ مكانًا شاغرًا قرب نافذة فلم يركب. أقبل ميكروباص آخر. لمح فيه مكانًا قرب نافذة. صعد. جلس ودفع بقبضته المُرتعشة الزجاج إلى النهاية فهب عليه هواء ساخن من الشارع. قال لنفسه «لكنه هواء على أية حال». بعد قليل ارتقت عتبة السيارة فتاة جميلة في نحو العشرين. جلست أمامه. تأمَّلها. غزالة ترُدُّ الروح، لو أن الغزالة تستخدم وسائل نقل عام. أحصى بعينيه المقاعد التي ما زالت شاغرة. تحسَّس الفلوس في جيبه الخلفي. أحسَّ بالعطش يشرخ حلقه. استغبى نفسه لأنه لم يشترِ زجاجة ماء مع أن المحلَّ كان على بُعد خطوة. تطلع إلى ظهر الفتاة وقماش البلوزة الحريري. استنشق عطرها الذي هوَّم بخفةٍ حول شعرها ورقبتها. نقل بصره بين كتفَيها ورأسها المَحنيّ في الغالب على موبايل. حلقُه مُلتهب. هل يهبط ويشتري زجاجة ماء ويرجع بسرعة إلى مقعده؟ أم أن أحدًا في تلك الأثناء قد يستولي على مكانه؟ شاهد السائق في الشارع بجوار السيارة مُعتمدًا بكفّه على مقدمتها يصيح بخطّ سيره. زجَّ برأسه في النافذة يُناديه «يا ريس .. ياريس»، لكن صَوته لم يصل إليه في الضوضاء. امرأة كانت تجلس في كابينة القيادة استدارت بكتفِها للخلف. قالت تُخاطبه: «عاوز حاجة حضرتك»؟ سيدة كبيرة. وجهها مُدوَّر، ريَّان، مثل فطيرة من خير زمان. دهش من دقَّة شعورها بمن حولها. أي روح مرهفة! وأي أخلاق نبيلة! قال مُمتنًّا: «لا والله .. أنا بس عطشان .. وكنت عاوز أشتري زجاجة ماء من المحل اللي قُدامنا .. لكن مش معقول». لم تنطق المرأة بكلمة. فتحت باب الكابينة ودلَّت قدَمَيها إلى الإسفلت ونزلت. وقفت أمام باب الركَّاب في الصالون، ومدَّت كفَّها نحوه قائلة: «هات أجيب لحضرتك». قال مشدوها: «ما يصحّش والله؟!» قالت ببسمة عامرة بالطيبة: «إزاي ما يصحش؟ دي حاجة بسيطة». تمتم شاكرًا وناولها ورقةً بعشرة جنيهات. مضت بخطوةٍ نشطة إلى المحل. ألقى نظرة على ظهر الغزالة الجالسة أمامه. كتفان مُدوَّرتان مثل فاكهة طرية أثارت رغبته في أن يطويهما في صدره. رجعت المرأة. ناولتْه بقية الفلوس وزجاجة ماء باردة. انفعل بنخوتها وقال لنفسه «يستحيل أن تلقى أحدًا الآن بهذا النُّبل». قال بتأثر: «تسلمي من كل سوء». انتبهت الغزالة إلى الحوار بينهما فأدارت رقبتَها تتأمَّلُه. قالت له المرأة ببسمة خفيفة: «إحنا نشأنا على إننا نحترم الكبير ونخدمه». شيء في كلامها عن «الكبير» أيقظ فيه شعورًا بالحذر. قالت المرأة: «وحضرتك زي والدي» هتف في سرّه «كفاية». اختلس نظرة إلى الغزالة التي تفحَّصته بنظرة تُقدّر سِنَّه. قالت المرأة وعيناها تنديان بالحنان: «وأنا زي بنتك». امتزج شعوره بالامتنان للمَرأة بالغضب. أدارت الغزالة رقبتَها إلى الأمام منصرفةً بعيدًا إلى نفسها. بدَتْ له كلمات المرأة مثل مضرب يقذف الكرة بعيدًا، ثم يمضي إليها ثانية ويعود لضربها حتى تختفي. صاح في سرِّه مُتوسِّلًا إليها: «كفاية بقى»، لكن المرأة مدَّت كفَّها إلي ركبتَيه تُربِّت

عليهما بعطف. تنهّد متأثرًا من كل ذلك الحنان الجيّاش وهو يصيح في نفسه: «كفاية .. يا جزمة يا بنت الجزمة .. كفاية»! نهض وهبط من الميكروباص.

***

أمس الثلاثاء 11 مايو شيَّعنا تسعة أطفال قُتلوا بصاروخ واحد في غارة على بيت حانون. سِرنا خلف النعوش الصغيرة وكان بالقُرب منَّا أحد الآباء، رحنا نرفعه من تحت إبطَيه وهو يذكر أطفاله من خلال دموعه: «قُتلوا جميعًا في ملابس العيد». تمدَّد الخوف بداخلي من أن يَلقى طفلايَ ريم وعمار وأطفال أخي أكرم الثلاثة المصير ذاته. هذا مُحتمل جدًّا، فقد قتلوا من عام 2000 إلى يومِنا هذا ألفَي طفل، بمعدل مئة زهرةٍ صغيرة سنويًّا اقتلعوها في حقول الموت. مُحتمَل جدًّا أن يسقط بيتنا في غارة فنختفي جميعًا ولا يبقى من عائلتنا أحد. ركبني هذا الخاطر الأسود فعدلتُ خطَّ سيري واتجهتُ إلى شارع الجلاء حيث يسكن أخي. قبل المنزل بقليل شاهدت عن يميني حطام مكتبة الشروق. أحجار تساندت على بعضها. أخشاب مُهشَّمة سوداء الأطراف. أسياخ بارزة. كتب تناثرت فاغرة الأوراق. لافتة من قماش انكسرت بين الأنقاض: «كتب وقرطاسية». صعدت إلى شقة أخي أكرم. كان نائمًا فأيقظوه. جاء إلى حجرة الضيوف بالبيجاما. قلت له: «أكرم أخي .. عمار ابني ما زال صغيرًا يحتاج إلى رعاية أمّه، لكن ما قولك في أن أترك عندك ريم ابنتي؟ وتترك أنت عندي واحدًا من أطفالك الثَلاثة»؟ حملق أكرم فيَّ بنظرة من لم يفهم. قلت أوضّح له: «إذا وافقت فإنه إذا تعرَّض بيتك للقصف ولا قدَّر الله مات الجميع فسوف يبقى طفلٌ يحمل اسمك، عندي، وإذا دمِّرَت إحدى الغارات بيتي تبقى روح حية من نسلي عندك»؟ حدجني أكرم بانتباه. قلت له، وأنا مزعزع الثقة في سلامة الاقتراح: «في نهاية المطاف أيام وتنقضي. ابنك عندي أو ريم ابنتي عندك .. أيام وتنقضي». كنت أطلب رأيه، أن يقول لا هذا مُحال، أو أن يُناقش المقترح، لكنه غمغم مُنطفئًا من دون أن ينظر إليَّ: «ماشي الحال. قد تكون هذه هي الوسيلة الوحيدة لمرواغة الموت». قدرتُ أننا اتفقنا فنهضت لأنصرف. وقف أكرم. تبادلنا النظر. كدنا أن نمدَّ أيادينا لنتصافح لكننا لم نفعل. في طريقي إلى بيتي بشارع الوحدة تمهلت عند مفرق ضبيط. كان الشباب يتصايحون ويهرولون في كل ناحيةٍ على ضوء كشافات السيارات يُحاولون انقاذ البعض من تحت الركام والأنقاض، وشابة في مقتبل العمر رفعت يدَيها إلى السماء صارخة: «يا الله .. فليقصفونا معًا مرة واحدة! يا الله»!

واصلتُ طريقي إلى بيتي، وكانت ريم تلهو مع أخيها الأصغر عمَّار في الصالة. نظرت إليها. قلت لنفسي بحزم: «لا. لن أذهب بها إلى أيِّ مكان. سنبقى معًا، وليكن ما يكون. أنا لا أستطيع الاستغناء عنها لحظات». تذكَّرتُ صياحها كلما كنتُ أغسل وجهها بالصابون ثم انفلاتها من بين ذراعيَّ وركضها متعثرة بين الكراسي واختباءها تحت السرير، حيث تحبس أنفاسها، أرفع غطاء السرير المُدلَّى على الأرض. أحدق بها مبتسمًا فتصرخ وهي تُحرك يديها أمام وجهها: «لا يا بابا .. لا تجدني بسرعة». لن يكوَن بوسعها أن تقول: «لا تجدني بسرعة» عندما ترتوي حقول الموت وتقطف الطائرات منها كل الزهور. ظللتُ جالسًا على مقعدي في انتظار قدح الشاي من أم ريم. أغمضت عيني أسأل الله بحرارةٍ أن يهبني إشارة تدلُّني على الطريق الصحيح. هل أذهب بها إلى عمها؟ أم أستبقيها معي؟. فجأة دوَّي القصف مسموعًا بقوة، وارتجَّ زجاج النافذة، جريتُ أفتحها. كانت الطائرات تُحلق على ارتفاعٍ منخفض،

والانفجارات تتلاحق واللهب يندلع هنا وهناك في الشارع، ثم تمايل البيت بشكل جنوني وسبح كل شيءٍ أمامي متأرجحًا متوهجًا بلون أصفر وأحمر، وظهرت أم ريم وبيديها الطفلان. هرولنا نهبط الدرج. وقفنا في الشارع أمام العمارة مع بقية العائلات. كانت الأرض ساخنةً تحت قدمي، والأطفال يبكون، بينما نحن ننظر إلى عمارة أبي عوف وقد سُوّيت بالأرض ومن بعدها عمارة اليازجي. عشرون غارة واحدة بعد الأخرى ثم توقف القصف. صعِدنا إلى البيت، فعاهدت نفسي: «غدًا آخُذ ريم إلى عمّها».

في الصباح ، وكان ذلك يوم الأربعاء 12 مَايو أمسكتُ بيد ريم في كفي ومشينا إلى بيت أخي أكرم. لم تكن المسافة بعيدة. لكنَّني حملتُ ريم على كتفي بعض الوقت. وصلنا إلى العمارة فتوقفتُ أمام مدخلها ولم أصعد. لبثتُ مدة وريم عن يميني تُمسك بأطراف أصابعها كمشةً من ساق بنطلوني، تجذبني منها، والهواء المتدفّق من بحر غزة يهبُّ علينا. رفعت بصري إلى شرفة الشقة. كان ثمة ضوء خافت على أطرافَ الستارة. جذبتني ريم: «بابا .. ألن نصعد لعمو؟ بابا»؟ حركت قدميَّ خطوةً ثم رجعت. عدتُ ببصري إلى الشرفة بأملٍ أن يطلَّ منها أحد ويدعونا إلى الصعود فيحسم تردُّدي. جذبتني ريم: «يا بابا». جلست علىً الأرض وركبتاي لأعلى. ضممتُها بقوةٍ إلى صدري. جاءني صوتها خافتًا مع أنفاسها وهي تضغط بشفتَيها الرقيقتين على طرف أُذني: «يا بابا؟».

***

وحين تسأليني بخفوت: «من أنتَ»؟ أقول لك بملء القلب: «أنت»، وتديرين وجهك بحيرةٍ وألَمٍ إلى ناحيةٍ أخرى، أقول لك: «أنت»، وتجرح قلبي بحَّة صوتيَ إلى لا أحد، وأراك شجرةً فتيةً واحدةً في الكون، وأجلس مستنداً إلى جذعك بظهري وحياتي وقلبي. أتطلَّع إلىَ أعلى حيث فاكهتك، حيث عينيك الجميلتَين، أُحدق بهماَ لعلني أراني وأنا أراك. وأنا جالس في ظلك، يغمرني زمانك، الفجر منك، والمساء منك، فيغمرني مكانك، البيوت أنت، والغابات أنت، وإذا طالتَ جلستي وأمطرَت السماء على كتفي أعرف أن المَطر أنت. تتقطَّر الأزمنة والأمكنة من شعرك المُرسَل، وتنزلقَ تغمرني. المجرَّات التي تدور، الجبال العالية والسفوح.

يا قلبي الذي هناك وقلبك الذي هنا، أليس الحُب أن تكون بيننا مئات الأميال وتتنفَّسين هناك فتنفتح رئتاي هنا؟ تتجوَّلين في المدن البعيدة فتكلُّ قدماي هنا؟ تغمضين عينيك فيسرقني النعاس؟ أليس الحب ألا يبقى منّي شيء ليس أنت؟ أستند بعمري إليك! أطوق عودك الأخضر. أحدق بعينيك المُشعَّتين الشاردتَين لعلني أتذكَّر من أنا؟ أو مَن كنتُ قبل أن ألقاك؟ لكنك تنظرين إلى شيءٍ بعيد، وتجرح قلبي بحَّة صوتي إلى لا أحد.

أراك تهبطين من بيتك فتخرج الشمس تنير الطريق لأجلك وحدك، تتلفَّتين حولك، تَعبُرين، تتوقَّفين عند بابي. تساوين شعرك. تُنصتين إلى دقَّات قلبي العالية وراء الباب. أفتحه بيدٍ مُرتجفة، وأقف مأخوذاً بجمالك الذي يتجدَّد كل لحظة. أضغط يدَيك بين يدي. كل شيءٍ مُعَد لكي تكوني معي، الأقداح وقطع الخبز الصغيرة، والكلمات التي سنتبادلها بارتباك ثم بحيوية، كل شيءٍ حتى الصمت المُشبع بعشقي ونظرتي المتيمة، الصمت القلق من نظرتكً المشعَّة الحائرة مثل غزالة مُطاردة. يدور قلبي في جمالك، وأعلم أنني سأُحبك بكل قوة حضوري في الدنيا وأنا حي، وكل قوة غيابي حينما أغيب، أعلم ذلك، وتجرح قلبي بحَّة صوتي إلى لا أحد.

أدرت ظهرك، ورُحنا نفترق، ببطء، وصعوبة، كما تُفارق الوردة غُضنها فيبقى فيها دمُه ويبقى فيهَ عطرها. ألتقط شظايا القلب المكسور من الأرض، أقول لنفسي كل كسرةٍ منها قلب صغير قادر على أن ينهض ويُحب، أضعها على كفّي وأنفخ فيها، فلا أرى سواك في أفق يرتجف من النور والحنان. ويغمرني الحزن، وأنت تَذبحين ما بيننا بعذوبة العشق نفسها، بالرقَّة نفسها، وفي صمت. لا أحزن على كل ما قلتُه لك، لكن على ما لن أقولَه، وعلى بحَّة صوتي تجرح في الفضاء قلبي .. إلى لا أحد.

كنت من قبل أعرف المعادن التي خُلق منها الحب. العشق من ياقوت القلب. الشوق من فضة الخيال. القبلة من ذهب مُشتعل. قلق الانتظار من النحاس. ولم أكن أدري مما خلق الصمت بين المُحبين؟ حتى هبط الصقيع وتجمَّدت الأغاني في حلوق الطير فعرفتُ أن الصمت خلق من الحديد. كم خمشَتْه يداي ونزفت فوقه وبقيَ موحشًا ثقيلًا، يفوح الزهر من تحته بآخِر وأجمل أنفاسه خافتة تحوم حتى يشبع الهواء منهاَ، وأنا أواصل سيري أبحث عنك

حتى تجرح قلبي بحّة صوتي في الفضاء.. يا قلبي الذي هناك وقلبك الذي هنا .. إلى متى تبقى عيناك حلالًا على خيالي حرامًا على حياتي؟

الكاتب د. أحمد الخميسي

قاصٌّ وكاتب صحفي. مواليد القاهرة 1948. دكتوراه فى الأدب الروسي جامعة موسكو عام 1992. عضو نقابة الصحفيين واتحاد كتاب مصر. عمل فى الصحافة بدءًا من عام 1964. ظهرت قصصه القصيرة فى العام ذاته فى المجلات المصرية. قدَّمَه الكاتب الكبير يوسف إدريس لمجلة الكاتب المصرية عام 1967.

ـ عمل أثناء وجوده للدراسة فى روسيا مراسلًا صحفيًّا لجريدة الاتحاد الإماراتية وإذاعة دولة الإمارات من 1989 حتى 1998، ثم من القاهرة مراسلًا لمجلَّة الآداب البيروتية ثلاث سنوات من 2006 حتى 2009.

ـ كرَّمَه اتحاد الأدباء العرب لدوره فى ترجمة الأدب الروسي إلى اللغة العربية. كرَّمَه اتحاد الكتاب الروس، ومجلة ديوان العرب.

ـ حاز جائزة «نبيل طعمة» السورية عن مسرحيته «الجبل» عام 2011.

ـ جائزة ساويرس عن مجموعته القصصية «كناري» كأفضل مجموعة بين كبار الأدباء لعام 2011، وحصل على نفس الجائزة مرةً أخرى عن مجموعته «أنا وأنت» 2017.

ـ في مارس 2021 منحَه اتحاد كتاب روسيا العضوية الشرفية تقديرًا لجهوده في نشر الثقافة والأدب الروسي بما قدَّمَه من ترجمات ومؤلفات.

ـ يكتب فى الصحافة المصرية والعربية بانتظام.

ـ نظم أربع ورش فى فنِّ كتابة القصة القصيرة.

أعماله القصصية:

1ـ «الأحلام، الطيور، الكرنفال» مجموعة قصصية، الهيئة المصرية، 1967 مجموعة بالاشتراك مع أحمد هاشم الشريف ومحمود مؤنس.

2 – «قطعة ليل» مجموعة قصصية – دار ميريت بالقاهرة – يوليو 2004، وتُرجمت إلى الإنجليزية وطُبعت في أمريكا.

3 – «كناري» مجموعة قصصية مؤلفة، كتاب اليوم، أخبار اليوم، ديسمبر 2010، حازت على جائزة ساويرس فرع كبار الكتاب كأفضل مجموعة قصصية لعام 2011.

4 – «رأس الديك الأحمر»، مجموعة قصصية مؤلفة، كتب خان، القاهرة، ديسمبر 2012.

5ـ «الأجيال الثلاثة» مجموعة قصصية آنا أحمد الخميسى – أحمد الخميسي – عبد الرحمن الخميسي، دار كيان، القاهرة، يناير 2015.

6ـ مجموعة قصصية «أنا وأنت «، دار كيان، القاهرة 2015، فازت بجائزة ساويرس كأفضل مجموعة قصصية بين كبار الأدباء فى2017.

7ـ مجموعة قصصية «ليل بلا قمر» هيئة الكتاب المصرية ديسمبر 2017

8ـ مجموعة «ورد الجليد»، دار مجاز، القاهرة 2019.

في الترجمة:

1ـ «معجم المصطلحات الأدبية» ترجمة عن الروسية عام 1984.
2ـ «المسألة اليهودية» للأديب العالمي دوستويفسكي، مجلة أدب ونقد، العدد رقم 69، مايو 1991، وأعادت مجلة «زرقاء اليمامة» عام 1996 نشر نفس الترجمة، ثم تضمَّنَها كتابه «أوراق روسية».
3ـ «كان بكاؤك فى الحلم مريرًا»، قصص مُترجمة عن الروسية، دار المستقبل 1985.
4 – «قصص وقصائد للأطفال» ترجمة، اتحاد الكتاب العرب دمشق عام 1998.
5ـ «نجيب محفوظ فى مرايا الاستشراق» ترجمة وإعداد، دار الثقافة 1989، وصدرت منه طبعة ثانية عن المجلس الأعلى للثقافة.
6ـ «أسرار المباحثات العراقية السوفيتية فى أزمة الخليج»، تقديم وترجمة، 1991، مكتبة مدبولي.
7ـ «نساء الكرملين»، مكتبة مدبولي 1997.
8ـ «رائحة الخبز»، قصص مترجمة، هيئة قصور الثقافة 1999
9ـ «لقاء عابر»، قصص روسية مترجمة، كتاب اليوم الأخبار، فبراير2014.
10ـ مجمل تاريخ الأدب الروسي. قصور الثقافة المصرية. القاهرة 2014.

الأعمال المسرحية:

1ـ «الجبل» مسرحية، هيئة قصور الثقافة، 2011، فازت بجائزة نبيل طعمة السورية عام 2011.

الأعمال السينمائية:

1ـ حوار فيلم «عائلات محترمة» عام 1968.
2ـ حوار فيلم «زهرة البنفسج» 1972.

الدراسات:

1ـ «موسكو تعرف الدموع» دراسات، كتاب الأهالي، القاهرة 1991.
2ـ «الصعود إلى الجبال الشيشانية»، كتاب الاتحاد، دولة الإمارات 1995.
3ـ «الباب المغلق بين الأقباط والمسلمين»، دار الهلال، القاهرة، 2008.
4ـ «عيون التحرير فى الأدب والسياسة»، 2011، دار كيان، القاهرة.
5ـ «أوراق روسية»، مقالات، كتاب اليوم الأخبار، مايو 2013.
ـ يكتب بانتظام في الصحافة المصرية والعربية.

إيميل: ahmadalkhamisi2012@gmail.com
هاتف: 01005231809

***